

اجبات كريستي

الطائرة المفقودة

0143899



Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الإسكندرية

الطائرة المفقودة

أُجَانَا كَرِيمِي

الطَّائِرَةُ الْمَفْقُودَةُ

تَعْدِيثٌ
عَشْرٌ بِدِ الْعَزِيزِ أَمِينِ

المكتبة الثقافية

بِكَيُوت - لُبْنَان

الطائرة المفقودة

الفصل الاول

أزاح الرجل الجالس إلى المكتب ، ثقالة الورق إلى يمينه ، بضع بوصات .

كان وجهه أقرب إلى ان يكون جامد السمات خلواً من التعبير اكثر من ان يكون غارقاً في التفكير او شارد الذهن .

وكان من الصعب عليك ان تتكهن بحقيقة عمره ، فهو لا يبدو كهلاً ولا يبدو شاباً ، فقد كانت بشرته ناعمة ملساء خالية من الفضون وان أطلت من عينيه نظرة تستشف منها الإعياء .

أما الرجل الآخر الذي يشاركه نفس الغرفة فأكبر سنًا ، وكان ملوح الوجه اسمراراً ، وله شارب صغير عسكري الطراز ، وكان يبدو ملولاً لا يستقر على مقعده ، ولا يفتأ يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، ومن حين لآخر يلقي بملاحظات في كلمات حائقة .

إنفجر يقول ساخطاً :

- كلها مجرد تقارير !. تقارير ، وتقارير ولكن لا نفع فيها .
وتطلع الرجل الآخر الجالس إلى المكتب في الأوراق المقدسة أمامه ،
والتي رشقت فيها بطاقة تحمل هذه الكلمات (بينرتون ، توماس شارل ، ،
وبعد الاسم علامة استفهام كبيرة .

ورفع الجالس إلى المكتب رأسه عن الأوراق وقال :
- إنك طبعاً قرأت كل هذه التقارير . أفلم تجد فيها بادرة ذات
جدوى ؟ .

فأجاب الآخر متسائلاً :

- من يدري ؟
- صدقت .. تلك هي المشكلة .. فلا أحد يستطيع أن يقطع
برأي .

وعقب الأكبر سنًا بسيل من الكلمات بدا وكأنها تنطلق من مدفع
رشاش ، قال :

- تقارير من روما .. وتقارير من تورين . لقد شوهد في الريفيرا ..
وشوهد في أنتويرب .. من المؤكد انهم رأوه في أوسلو ، ومن المؤكد انه
رئي ، في ستراسبورج وكان سلوكه باعثاً على الريبة ، وكذلك شوهد في شاطيء
أوستند وفي صحبته شقراء رائعة الجمال .. والبعض لحوه في شوارع بروكسل
ومعه كلب سلوقي .

ثم أردف في نبرة تتسم بالسخرية :
- لم يبق إلا ان يشاهد في حديقة الحيوان ، يخترق حماراً مخططاً
وحشياً ..

وقال صاحب المكتب :
- إنك رجل تفتقر إلى الخيال يا هوارتون أما انا فأعلق شيئاً من الأهمية
على تقرير أنتورب .

وارتمى الكولونيل هوارتون جالساً على مسند مقعد ، وقال في الحاح :

- ولكن يجب ان تقيط اللثام عن هذا اللغز .. يجب ان نجد جواباً على هذه الأسئلة : « كيف ؟ وأين ؟ » ، انك لا تستطيع ان تسكت على اختفاء عالم فذ كل شهر تقريباً ، ثم تجد نفسك عاجزاً عن الاجابة على هذه الأسئلة البسيطة : « كيف ، ولماذا ، وأين ؟ » . أترأه حيث تعتقد انه موجود ، ام أنه ليس هناك .

ثم أردف :

- أترأه قرأت نتيجة التحريات الأخيرة ، عن بيترتون ، في أمريكا ؟

وأوما الرجل الجالس إلى المكتب برأسه إيجاباً وقال :

- نفس الميول اليسارية المعروفة ، في الوقت الذي شاعت فيه واعتنقها الناس جميعاً .. ميول غير ثابتة وذات طبيعة غير مستقرة كما تبين فيما بعد ، وقبل الحرب أنجز أعمالاً هامة ذات شأن ، وعندما هرب مانهم من ألمانيا عين بيترتون مساعداً له ، وانتهى به الأمر إلى ان تزوج ابنة مانهم . ثم قفز إلى الشهرة باكتشافه المثير لتحطيم الذرة ، والحق ان تحطيم الذرة كان دون شك اكتشافاً ثورياً دفع بيترتون إلى القمة ، وجعل منه قطباً من أقطاب العلوم الذرية .

ولكن زوجته ما لبثت أن ماتت عقب الزواج ، فانهار بيترتون حزناً عليها ، وفجعه موتها ، ثم جاء إلى إنجلترا وعمل في هارويل ثمانية عشر شهراً ، ومنذ ستة شهور تزوج للمرة الثانية .

فتسائل هوارتون في حدة :

- وما معلوماً لنا عن زوجته ؟

- لا شيء ذو أهمية ، كل ما نعرفه عنها انها ابنة محام من أهل المنطقة ،

وكانت تعمل في إحدى شركات التأمين قبل زواجها ، وليست لها فيما عرفنا اتجاهات سياسية واضحة .

– وما الذي يقولونه عنه في هارويل ؟

– شخصية لطيفة محبوبة ، أما عن عمله فلا شيء ذا شأن بارز ، مجرد تحسينات أدخلها على جهاز تفتيت الذرة .

وران الصمت على الرجلين برهة من الوقت ، وكان حديثهما مجرد ثروة قطعاً للوقت ، لا تتسم بشيء من الجدية ، فإن تقارير الأمن لا تحوي عادة شيئاً جديراً بالاهتمام .

قال هوارتون متسائلاً

– وطبعاً ، كانت تحركاته محل مراقبة ، منذ حط قدميه في إنجلترا .

– وكان كل شيء مرضياً تماماً

فقال هوارتون متأملاً :

– ثمانية عشر شهراً ، وهو تحت المراقبة . انك تعلم ان هذه المراقبة تشير أعصابهم .. إحتياطات الأمن المتواصلة تحطم نفسياتهم ، الشعور بأنهم دائماً تحت المهرج ..

هذه الحياة المحسوبة عليهم في كل حركة من حركاتهم وكل لفظة من لفظاتهم .. كل هذا كفيلاً بأن يجعلهم عصبيين ، وان يحملهم على تصرفات شاذة . فقد رأيت الكثير من هذه الحالات .

وسكت هنيهة ثم استطرد يقول :

– وعندئذ يبدأون في أن يحملوا بعالم مثالي ، عالم تسوده الحرية والأخوة ، وتشارك فيه الدول في أمرارها العلمية ذات الطابع العسكري ، وتعمل متضافرة من أجل خير الإنسانية .

وتلك هي اللحظة الملائمة لكي ينقض عليهم شخص لا يهمه إلا ان يدمر

الانسانية ، إنه يرى الفرصة السانحة ويبادر إلى اقتناصها .
- وددت لو انني عرفت المزيد عن بينرتون ، لا أعني بذلك حياته أو عمله وإنما الأشياء الأخرى الصغيرة .
إن هذه الأشياء النافمة تكشف الكثير .. النكات التي تضحكه ..
ما يستفز ويشيره ما يجعله يسب ويلعن ، الأشخاص الذين يعجب بهم ، أو يشيرون حنقه .

وتطلع اليه هوارتون في عجب واستغراب .
ثم تسأل :

- وماذا بشأن زوجته ؟ أترك استجوبتها ؟
- عدة مرات .

- أما من فائدة ترجى منها ؟

وهو صاحب المكتب كتفيه وقال :

- لا شيء ، حتى الآن .

- أعتقد انها تعرف شيئا .

- إنها لم تعترف ، طبعاً ، بأنها تعرف شيئا ، او انها لاحظت شيئا . لا قلق ولا حزن ولا يأس ولا اكتئاب . كانت تسير سيرا طبيعيا عاديا ، بلا ضغوط من أي نوع كان .. وهي تعتقد ان زوجها قد اختطف .

- وأنت لا تصدق هذا ؟

- إنني رجل كثير الوسوس والشكوك ، ولهذا لا أصدق أحداً .

وقال هوارتون في ببطء وتمهل :

- على أية حال ، ينبغي على المرء ان يكون ذا ذهن متفتح بعيد

عن التشبث .

ثم أردف .

- ولكن ما رأيك في الزوجة ؟
- طراز عادي تلاقاه كل يوم منهمكاً في لعب البريدج
- هذا يزيد الأمر صعوبة رتبعيداً .
- إنها موجودة هنا الآن لمقابلتي ، ومن جديد ، سوف نعيد ونبدأ فيما كنا فيه .
- فقال هوارتون .
- الآن لا داعي لبقائي ، فلا أريد ان أحتجزك أكثر من هذا ، إذ ليس لدينا ما نتداول فيه ، اليس كذلك ؟
- لا ، لسوء الحظ ، ولكنني أريد منك ان تدرس تقرير وارسو وتتحرى عن دقة ما فيه من معلومات ، إذ يتراءى لي انه بداية طيبة .
- وأوماً هوارتون برأسه موافقاً وغادر الغرفة .
- ورفع الجالس الى المكتب سماعة التليفون ، وأمر باستدعاء مسز بيترتون لمقابلته .

* * *

- جاءت نقرات خفيفة على الباب ، ودخلت مسز بيترتون .
- كانت امرأة طويلة القامة ، في حوالى السابعة والعشرين من العمر ، تتميز بشعر رائع أحمر اللون ذي مسحة نحاسية .
- ولاحظ ان وجهها خال من التجميل .
- وأثارت هذه الملاحظات في نفسه الشعور بأن مسز بيترتون تعرف شيئاً وانها تخفي ما تعلم .
- لقد علمته خبرته الطويلة ان المرأة المسرفة في حزنها وقلقها لا تحمل أبداً

تجميل وجهها ، فهي تعرف ان الحزن الشديد يضيف على وجهها سمة منفرة بشعة ، فتبذل ما في وسعها لكي تصلح ما أفسده الحزن . ولكن لعل مسز بيطرتون آثرت ان لا تتجمل حق تبث في نفسه الاعتقاد بأنها شاردة الدهن ، غارقة في همومها لا تحفل بنفسها .

ورحب بها الرجل وأشار إلى مقعد ودعاها إلى الجلوس ، وقبل ان تستقر عليه هتفت به منبهرة الأنفاس :

- أوه مستر جيسوب ، أما من نبأ عن زوجي ؟

- يؤسفني يا مسز بيطرتون ان جشمتك مشقة الحضور ، ولكني أخشى ان لا تكون لدي حق الآن أنباء مؤكدة .

فعمقت اوليف بيطرتون في كلمات سريعة :

- أعرف هذا ، فإنك أشرت إلى ذلك في خطابك ، ولكني كنت أرجو ان يكون قد بلغك نبأ جديد منذ بعثت إلى برسالتك .. ولكني سعيدة بأنك دعوتني إلى الحضور ، فأسوأ ما في الأمر ، اني حين أخلو الى نفسي في البيت ، لا أملك إلا ان أفكر وأتعذب ، فلا شيء لدي أفعله سوى هذا .

- أرجو ان لا يضايقك ، يا مسز بيطرتون . ان أعود مرة أخرى ، إلى ما كنا فيه ، وإلى ترديد نفس الأسئلة ، ومعاودة اللاحاح على نفس النقط ، فإن من المحتمل دائماً ان تبدر كلمة واحدة تكون مفتاحاً لحل اللغز ، او ان تذكر شيئاً نسيته في مرة سابقة .

- إني أدرك ذلك ، فوجه إلي مرة أخرى ، نفس الأسئلة ، إذا طاب لك ذلك .

واستهل مستر جيسوب استجوابها بأن قال :

- كانت آخر مرة رأيت فيها زوجك في اليوم الثالث والعشرين من شهر أغسطس اليس كذلك ؟

- تماماً يا سيدي .
- وكان هذا عند مغادرته انجلترا الى باريس ، لحضور أحد المؤتمرات ؟
- نعم .
- وحضر زوجك اليومين الأولين من أيام انعقاد المؤتمر ، ولكنه تخاف في اليوم الثالث ، وتبين انه ذكر لأحد زملائه انه سيذهب بدلاً من ذلك في رحلة نهريّة في نهر السين .
- رحلة نهريّة ؟
- نعم ، في تلك القوارب التي تجوب نهر السين .
- ثم تأملها جيسوب بنظرة فاحصة وقال :
- أيدعشك هذا للتصرف من قبل زوجك يا مسز بيترتون ؟
- فأجابت في شيء من التردد :
- نعم يدعشني ، فعهدي به انه كان شديد الحرص ، على حضور المؤتمر .
- هذا جائز ، ومع ذلك فإن الموضوع الذي كان مطروحاً للمناقشة في المؤتمر في ذلك اليوم ما كان من الموضوعات التي تهم زوجك ولذا أثر ان يتخلف عن الجلسة وان يمنح نفسه عطلة يرفّاح فيها ، ولكن ألا يبدو لك غريباً ان زوجك مولع بالرحلات .
- وهزت رأسها إيجاباً ، واستطرد جيسوب :
- وفي تلك الليلة لم يرجع زوجك إلى فندقه ، وطبقاً لمعلوماتنا المؤكدة فإنه ما عبر الحدود ، او على الأقل لم يستخدم جواز سفره في اجتيازها ، هذا إذا كان قد عبرها .
- ثم اردف يسألها :
- اتعتقدين ان لزوجك جواز سفر آخر باسم مستعار مثلاً ؟

- لا بالطبع ، ما الذي يدعوه الى هذا ؟
– ألم تري في متاعه مثل هذا الجواز ؟
وهزت رأسها نفياً بشدة واضحة وقالت :
– لا ، كما اني لا أصدق ابداً انه يمكن أن يقدم على هذا .. انه لا يمكن ان يغادر باريس عمداً واختياراً كما تحبون ان تصوروا اختفائه ، لا بد ان شيئاً حدث له ، او أنه فقد ذاكرته .
– أكانت صحته عادية وسليمة ؟
– نعم ، كان يجهد نفسه في العمل ، وفي بعض الأحيان يحس انه متعب مكثوداً ، ولكن لا شيء أكثر من هذا .
– ألم يكن يبدو قلقاً او مكتئباً على أية صورة ؟
– لا ، لم يكن ابداً قلقاً او مكتئباً لأي سبب كان .
وبأصابع مرتعدة ، فتحت حقيبتها ، وتناولت منديلها وسرت به وجهها .
وتهدج صوتها وهي تقول :
– إن الأمر فظيع ، فظيع جداً .. اني لا أستطيع ان أصدق ما حدث .. إنه لم يسافر أبداً دون ان يخطرني ، لا بد ان شيئاً حدث له ، إما ان يكون قد اختطف ، وإما ان اعتداء وقع عليه . إني أحاول دائماً ان أطرد الأفكار والوساوس من ذهني ، ولكنني في بعض الأحيان لا أملك إلا ان أتخيل ان التعليل الوحيد هو انه قتل .
– أرجوك يا مسز بيمرتون ان تنزعي هذا الخطر من رأسك ، إذا كان قد قتل فلا بد ان تكون جثته قد اكتشفت الآن .
– وما يدرينا ان يكون قد أغرق في أحد الأنهار مثقلاً بالأحجار ؟ هذا ما يحدث في بعض الأحيان .
– إنك تسرفين في الأوهام والتخيلات يا مسز بيمرتون .

وأزاحت المنديل عن عينيها ، وحديثه بنظرة يتبدى فيها غضب شديد وقالت :

- إني أعرف ما يدور في خلدك ، لكن الأمر ليس كما تتصور .. ان قوم لا يمكن ان يبيع الأسرار او يفشيها انه لم يكن شيوعياً او فاشيستياً حتى يفشي أسرار إلى هؤلاء أو أولئك .

فسألها :

- وما عسى ان تكون معتقداته السياسية يا مسز بيترتون ؟
- أعتقد انه كان في أمريكا ديمقراطياً ، وهنا في إنجلترا كان يصوت مع حزب العمال .. وعلى أية حال ، فإنه لم يكن يهتم بالسياسة .

ثم أضافت في نبرة منطوية على التحدي :
- إنه كان « عالماً » ، قبل كل شيء .. وكان عالماً فذاً لامعاً .

فقال جيسوب :

- تماماً ، كان عالماً فذاً لامعاً ، وتلك هي المشكلة ، ما يدرينا انه عرض عليه مرتب ضخيم أغراه بمغادرة البلاد ليعمل في مكان آخر ؟

وتفجر الغضب في صوتها وهي تقول في انفعال :

- هذا غير صحيح .. وهو ما تحاول الصحف ان توحى به وتثبتته في الأذهان ، وهو ما يدور في رؤوسكم جميعاً عندما جئتم إلي تستجوبوني .. ولكنه ليس صحيحاً ! إنه ما كان ليحل ابداً إلا اذا أخطرتني ، او على الأقل أعطاني فكرة عن نواياه .

- ألم يخبرك بشيء ؟ أي شيء ؟

والمرة الثانية كان يتحدث بها بنظرة فاحصة .
فأجابت :

- لا شيء على الاطلاق .. انني لا أعرف اين هو الآن ، ولكنني اعتقد انه إما ان يكون قد اختطف .. او قتل .

- إني آسف يا مسز بيترتون .. آسف جداً .. ولكن أرجوك ان تتأكدي من اننا نبذل أقصى ما في وسعنا فنعرف حقيقة ما وقع لزوجك ، إننا نتلقى كل يوم تقارير من مختلف الجهات .
فتساءلت في حدة :

- وما الذي تحويه هذه التقارير ؟

- إننا لا نزال ندرسها . ونتبين صحتها من زيفها ، لكننا بوجه عام غامضة ولا شيء قاطع فيها .

فمادت ترد في صوت نابض باليأس :

- ولكن يجب ان أعرف ما فيها .. انني لا أستطيع ان أستمع على هذا .

وران عليهما الصمت برهة ثم قال جيسوب :

- الذي أحاول ان أصل اليه يا مسز بيترتون هو ان أثقل صورة صادقة لزوجك .. أي نوع من الرجال هو ، ولكنني ارى انك لا تحاولين ان تساعديني .

- وما عساي أستطيع ان أقول اكثر مما قلت ؟ فقد اجبت على جميع أسئلتك .

- صحيح انك أجبت على أسئلتني ، غير ان معظم إجاباتك كانت للنفي او الانكار .. اني اريد رداً ايجابياً ، رداً بناء . هل تدركين ما أعني ؟ انك تستطيعين ان تنفذي الى خبايا الرجل ودخائله اذا عرفت أي نوع من الرجال هو .

وتريثت فترة مفكرة ثم ردت :

- فهمت ، وكل ما أستطيع قوله هو ان نوم كان رجلاً مرحاً لين العريكة

- وكان طبيعاً قديراً في مهنته .
فابتسم جيسوب وقال :
- هذه اوصاف عامة يمكن ان تنطبق على اي انسان ، ألا يمكن ان نتكلم
عن صفات ذات طابع شخصي ، صفات اكثر التصاقاً به ، مثلاً هل هو مولع
بالاطلاع والقراءة ؟
- نعم ، انه يقرأ كثيراً .
- أي نوع من الكتب يؤثره ؟
- تراجع المشهورين وسير حياتهم .. وايضا كتب الاجتماع وقصص الجريمة
عندما يكون مجهداً .
- اذن فهو قارئ تقليدي كمعظم الناس .
ثم اردف يسألها :
- ايلعب الورق او الشطرنج ؟
- انه يلعب البريدج ، وقد اعتدنا ان نلاعب الدكتور ايفانز وزوجته مرة
او مرتين في الأسبوع .
- هل لزوجك أصدقاء كثيرين ؟
- نعم ، فهو يحب الاختلاط والحياة الاجتماعية .
- ليس هذا ما عنيت ، وانما اردت ان أسأل عما اذا كان رجلاً يولي
اصدقائه اهتماماً شديداً .
- انه يلعب الجولف عادة مع واحد او اثنين من جيراننا .
- اليس له اصدقاء حميمون او خلان قدماء .
- كلا . انك تعلم ، انه ولد في كندا ، وامضى في الولايات
المتحدة ، ردها طويلاً من الزمن ، فلم تهيأ له الفرصة هنا لمعرفة
الكثيرين .
وتطلع جيسوب في ورقة منشورة امامه على المكتب وقال :

— اننا نعرف ان ثلاثة اشخاص من الولايات المتحدة زاروه في الأيام الأخيرة ، وأسمائهم مسطورة لدي هنا .. وطبقا لتعريقاتنا ، فلان هؤلاء الثلاثة هم الوحيدون ، الذين زاروه « من خارج البلاد » ، ولذلك فإننا نولي امرهم اهتماما خاصا ، واولهم ولتر جريفيث وقد زارك في هارويل .

— صحيح ، فقد اتى الى انجلترا وحضر لزيارة توم .

— وماذا كان رد الفعل عند زوجك .

— دهش توم لرؤيته ، ولكنه كان سعيدا جدا بهذه الزيارة ، فقد كانت بينهما في امريكا معرفة وثيقة .

فسألها جيسوب :

— وعلى اية صورة بدا جريفيث في نظرك .

— ولكنكم حتما تعرفون كل شيء عنه .

— نعم ، اننا نعرف عنه كل شيء ، ولكنني اريد ان أسمع منك انت رأيك فيه .

وفكرت لحظة ثم ردت :

— انه يبدو رجلا جادا يبعث مجلسه على الضجر ، وكان مهذبا جدا شديد المجاملة في لقائه معي . ولاح لي انه مولع جدا بتوم ومتلهفا الى ان يتحدث عما جرى في الولايات المتحدة ، منذ ان بارحها توم الى انجلترا . واظن ان حديثه كان يسدور حول الأخبار المحلية ، ولكنه لم يكن بالنسبة لي حديثا مسليا ، إذ لم اكن اعرف احدا ممن يتحدث عنهم ، وعلى اية حال فقد كنت بسبيل إعداد العشاء ، ولذا فقد تركتها معا يستعيدان الذكريات القديمة .

— لم يتحدثا في السياسة .

وتضرج وجه مسز بيترتون احمرارا وردت :

- لعلمك تحاول ان تلمح الى ان جريفيث شيوعي او فاشيستي ، اني واثقة من انه ليس بهذا او ذاك ، انه فيما اعتقد موظف في مكتب النائب العام .

- والآن فلننتقل إلى الزائر الثاني الذي اتى من وراء البحار ، الدكتور مارك لو كاس ، إنكما التقيتما به صدفة في فندق دورسيت .

- هذا صحيح .. كنا نتناول العشاء في دورسيت بعد خروجنا من المسرح ، فإذا بنا نلتقي فجأة بهذا الرجل ، إنه يعمل باحثاً كيمائياً ، وآخر مرة التقى فيها بتوم كانت في الولايات المتحدة .. وهو لاجئ ألماني اكتسب الجنسية الأمريكية ، وأنت طبعاً تعرف كل هذا .
- نعم ، إني أعرف ذاك يا مسز بيترتون .

ثم أردف :

- هل دهش زوجك لرؤيته؟

- نعم دهش جداً .

- وهل سر بلقائه ؟

- نعم ، نعم ، أظن ذاك .

- ولكنك غير متأكدة .

- قد فهمت من توم فيما بعد ان هذا الرجل لا يهمه .

- وهذا اللقاء ؟ أكان مجرد صدفة ؟ ألم يكن هناك تدبير سابق بحيث

يبدو اللقاء عارضاً ؟

- كلا ، بل كانت مقابلة عارضة .

واستطرد غيسوب :

- أما الزيارة الأخيرة فقد كانت صاحببتها سيدة تدعى مسز كارول سبيدر

وكانت هي الأخرى قادمة من الولايات المتحدة فكيف تمت تلك المقابلة ؟

فأجابت مسز بيترتون :

. أعتقد انها موظفة بالأمم المتحدة وكانت قد تعرفت بتوم عندما كان مقبياً في أمريكا ، وقد اتصلت به تليفونياً من لندن ، وأخبرته بوجودها في إنجلترا وسألته عما إذا كنا نستطيع ان نتناول الغداء في يوم من الأيام ، ولكننا اعتذرنا عن عدم تلبية دعوتها .

— انك انت التي لم تزورها ، أما زوجك فقد لبى الدعوة .

فحملت فيه دهشة وهي تقول :

— ماذا تقول ؟

— ألم يقل لك زوجك انه زارها ؟

— كلا .. لم يخبرني بشيء .

وبدت مسز بيترتون قلقة ومرتبكة ، وأحس الرجل الذي استجوبها بالراء لها .

وغنممت الزوجة في صوت خافت مأخوذ :

— من الغريب انه لم يحدثني بشيء عن زيارته لها .

وتابع جيسوب :

— لقد تناول الغداء معها في فندق دورسيت حيث كانت مسز سبيدر ققيم وكان ذلك في يوم الأربعاء ١٢ أغسطس .

فقالت متأملة :

— الأربعاء ١٢ أغسطس ؟ نعم فقد ذهب إلى لندن في ذاك اليوم ولكنه لم يشر أبداً إلى التقائه بها .

ثم تفجر على لسانها السؤال الذي كان يصطخب في رأسها :

— ما شكلها ؟ ما هيئتها ؟

— ليست من النوع الرائع الحلاب يا مسز بيترتون امرأة شابة كادحة في الثلاثين من العمر ، وليست من النوع الذي يسترعي الأنظار ، وليس هناك ما يدل مطلقاً على انها على صداقة وثيقة بزوجك ، فهذا ما يدعو إلى التساؤل عما

- حدا به إلى كتمان الأمر عنك .
- نعم ، نعم ، انه غريب حقاً .
- والآن أرجوك يا مسز بيلتون ان تفكري جيداً .. الم تلاحظي أي تغيير في سلوكك زوجك منذ ذاك اليوم ؟ أي حوالي منتصف شهر أغسطس ؟ أعني قبل سفره إلى المؤتمر بنحو أسبوع .
- لا .. لا .. لم ألاحظ أي شيء .. كانت سلوكه عادياً لم يطرأ عليه تغيير .
- ودق جرس التليفون الداخلي الموضوع على مكتبه ، فتناول السهاعة وأدناها من أذنه ، وأقاه صوت من الطرف الآخر يقول :
- هنا رجل يريد ان يقابل أحد المسؤولين بشأن موضوع بيلتون .
- ما اسمه ؟
- وخط غيسوب الاسم على قصاصة أمامه ثم قال :
- أهو بولندي الجنسية ؟
- لا أدري يا سيدي .. إنه يتكلم الانجليزية بطلاقة ، ولكن بلكنة أجنبية .
- حسناً ، أطلب اليه ان ينتظر .
- ودفع غيسوب إلى مسز بيلتون بالقصاصة المسطور عليها الاسم وسألها :
- أتعرفين أحداً بهذا الاسم ؟
- واتسمت عيناها دهشة وهي تقرأ الاسم ، وخيل اليه ان بادرة من الخوف غشيت عينيها لحظة :
- نعم ، إني أعرفه .. فقد بعث إلي بخطاب بالأمس . إنه ابن خالة زوجة توم الأولى .. وقد وصل لتوه إلى هذه البلاد ، وكان شديد الاهتمام بمسألة اختفاء توم ، فكتب إلي يسألني عما إذا كانت لدي أية أنباء عنه .

— الم تسمعي عنه من قبل ، الم تتقابلا ؟

فهزت رأسها نفياً وأجابت :

— لا ، لم يحدثني زوجي عنه أبداً ولم التق به في يوم من الأيام .

— إذن من المحتمل ان يكون مدعياً ؟

— هذا الخاطر لم يدر بخاطري .

ثم أردفت :

— كانت زوجة توم الأولى أجنبية ، إنها ابنة البروفسور مانهايم . فهذا

الشخص كما يتبدى من خطابه يعرف كل شيء عنها وعن توم .. ولكن إذا

كان مدعياً فما الهدف من وراء ذلك ؟

فرد غيسوب باسمًا .

— إنه السؤال العويص الذي يتردد على السنتنا بهذا المكتب .. إننا

دائماً نسأل أنفسنا ما الهدف من هذا ، وما الهدف من ذاك ؟ ومع ذلك

فالجواب دائماً مستمض لا سبيل اليه .

وقالت مسر بيمترتون :

— إني لم أعد أطيق هذه الحال . لا شيء إلا ان أجلس وأنتظر .. إني

أريد ان أسافر إلى أي مكان على سبيل للتغيير .. وإني أفضل ان أسافر

إلى الخارج لأروح عن نفسي . إني موشكة على الانهيار . إني أحاول ان

أنشيت بالشجاعة ، ولكن أعصابي لم تعد تحتمل .. فقد كتبت إلى

طبيبي أستطلع رأيه ، فأشار علي بضرورة السفر على سبيل الاستجمام ثلاثة

او أربعة أسابيع .

وأخرجت من حقيبتها خطاب الطبيب ، ودفعت به إلى غيسوب ، فقرأه

وأعاده اليها فسألته :

— أيكن السماح لي بالسفر؟

فنظر اليها بدهشة وقال :

- طبعا يمكنك ان تسافري متى شئت يا مسز بيترتون .
- كنت أخشى ان تعترضوا .
- ولماذا نعارض ؟ كل ما هنالك هو اني اريد ان أعرف معرك لأتصل بك إذا أتمني بعض الأنباء .
- فردت :
- في نيتي ان أسافر الى مكان مشمس ، اسبانيا او مراکش .
- اذن أتمنى لك رحلة طيبة .
- وانصرفت وهي ما تزال بادية القلق والاضطراب .

الفصل الثاني

ما أن انصرفت أوليف بيترتون حق استدعى الزائر الذي كان في الانتظار إلى مقابلة مستر جيسوب .

قال الزائر وهو يستوي جالساً على أحد المقاعد :

- اني الميجور غلايدر ، وهاك خطاب تعريف من السفارة الأمريكية .
وجري جيسوب بعينه على سطور الخطاب في نظرة سريعة ، ثم وضعه أمامه على المكتب وسأله :

- أية خدمة أستطيع أن أودها لك يا ميجور ؟

- إنني قادم لتوي من الولايات المتحدة ، وقد أتيت اليك أسألك عما إذا كانت لديك أنباء جديدة عن توماس بيترتون الذي اختفى أخيراً بطريقة مثيرة ، إن المرء لا يستطيع أن يصدق دائماً ما تشره الصحف وقد قيل لي انك الوحيد الذي لديه معلومات موثوق بها .

فقال غيسوب :

- يؤسفني انه ليست لدي معلومات مؤكدة عن بيترتون .

- لقد خطر لي أنه ربما أوفد إلى الخارج في مهمة خاصة . مهمة

سرية .

فقال غيسوب في كلمات متهملة :

– ان بيترتون يا سيدي العزيز مجرد عالم ، وليس دبلوماسياً أو عميلاً
مريباً .

فاستطرد الميجور غلايدر بنفس اللهجة الجدية :

– إن الألقاب كثيراً ما تكون خداعة يا مستر غيسوب ، ولعلك الآن
تتساءل عما يدفعني إلى الاهتمام بهذا الموضوع .. إن توماس بيترتون يمت إلي
بصلة القربى عن طريق الزواج .

– إنك فيما أعتقد ابن اخت البروفيسور مانهايم .

– آه .. إنكم هنا تتحرون عن كل إنسان .

فغمغم غيسوب باسمًا :

– إن الناس يأتون إلينا هنا ويفضون إلينا بما لديهم ، لقد كانت مسز
بيترتون هنا ، وهي التي أخبرتني بهذا ، وقالت أيضاً أنك بعثت إليها برسالة .

– نعم .. كتبت إليها أعزها وأسألها عما إذا كان لديها أنباء جديدة .

واستطرد الميجور غلايدر يقول :

– أن أمي هي الأخت الوحيدة لبروفيسور مانهايم ، وكأنا شديدي
التعلق كلاهما بالآخر ، وعندما كنت طفلاً كنت أقضي معظم الوقت في
بيت خالي ، وكانت الزا بالنسبة لي بمثابة أخت شقيقة ، وعندما مات أبي
وأمي انتقلت للإقامة في بيت خالي ، وكانت أياماً سعيدة ، ثم جاءت
الحرب بويلاتها ومآسيها ، وهرب خالي وإلزا إلى أمريكا ، أما أنا فبقيت
في بولندا ، وانضمت إلى المقاومة السرية ، وبعد أن وضعت الحرب
أوزارها ، سافرت إلى الولايات المتحدة لأزور خالي وابنة خالي ، هذا
هو كل شيء ..

وقابع الحديث قائلاً :

– وبعد أن فرغت من الجواز المهام التي أوكلت إلي في أوربا قررت أن
استقر في الولايات المتحدة بصفة دائمة لأكون على كثر من خالي وابنة خالي

وزوجها ، ولكن وأسفاه ! ما كدت أصل الى أمريكا حتى مات خالي في حادث سيارة ، ثم ماتت إلزا ابنة خالي ، أما توماس بيترتون زوج ابنة خالي فرحل إلى انجلترا وتزوج للمرة الثانية ، وعدت أنا كما كنت من قبل بغير أسرة ارتبط بها ، وعندئذ قرأت في الصحف نبأ اختفاء العالم الشهير توماس بيترتون ، فحضرت إلى إنجلترا لأرى ما يمكن عمله .

وتراخى الميجور غلايدر في مقعده وقال متسائلاً :

— مستر غيسوب ، لماذا اختفى بيترتون ؟

فقال غيسوب :

— تمنيت لو أني عرفت .

— ولكنك تشتبه في شيء ما على الأقل ؟

فقال غيسوب في حذر :

— هذا جائز ، فاختفاء بيترتون ليس الأول من نوعه .

— هذا صحيح ، فقد قرأت عن الكثير من حوادث الاختفاء .

وأخذ الزائر يشير في كلمات سريعة إلى عدد من حوادث الاختفاء التي

وقعت في العهد الأخير .

ثم عقب بقوله :

— وكلهم من العلماء ، اليس هذا غريباً ؟

ولبت غيسوب صامتاً .

فاستطرد الميجور غلايدر :

— أترام ذهبوا إلى ما وراء الستار الحديدي ؟

— هذا أحد الاحتمالات ، ولكنه ليس احتمالاً قاطعاً ، فمن المحتمل أنهم

انضموا إلى إحدى الجماعات السرية الفاشيستية ، أو أنهم ضاقوا بعملهم .

— ولكنهم طبعاً ذهبوا طواعية واختياراً ؟

فقال غيسوب :

- حتى هذا سؤال من الصعب الاجابة عليه .
ثم أردف :
– ولكن ما هو سر اهتمامك ببيترتون ، وهو بالنسبة اليك ليس إلا مجرد نسيب عن طريق الزواج ؟ بل انك لم تقابله أبداً في حياتك .
– هذا صحيح ، ولكن الأسرة عندما معشر البولنديين من الروابط الوثيقة ، وهي تفرض علينا التزامات لا نملك أن نتحلل منها .
ونض غلايدر واقفاً وأحنى رأسه تحية في جفاء وقال :
– يوسفني أن شغلت من وقتك أكثر مما ينبغي ، شكراً على أن قابلتني .
ونض غيسوب واقفاً وهو يقول :
– يوسفني انني لم أستطع أن أساعدك ، ولكنني أحب أن أؤكد لك اننا لا نعرف شيئاً على وجه اليقين ، ولكن إذا بلغني أي نبأ فأين يمكن أن أتصل بك ؟
– طرف الستارة الأمريكية ، وأكرر لك الشكر .
والمرة الثانية انحنى تحية ، واستدار منصرفاً .
ورفع غيسوب سماعة التليفون يدعو الكولونيل هوارتون إلى مكتبه .
وابتدره غيسوب بقوله :
– أخيراً بدأت الأمور تتحرك .
– حقاً ، وكيف حدث هذا ؟
– مسز بيترتون تريد ان تسافر إلى الخارج .
– أتراها ننوي أن تلحق بزوجها ؟
– هذا ما أرجوه ، لقد جاءتني مزودة بتقرير طبي ينصحها بالسفر طلباً للراحة والاستجمام .
– تدبير محكم منها .

فقال محذراً :

- ومع ذلك فقد تكون حقاً مقبلة على انهيار عصبي .
وتساءل هوارتون :

- هل استطعت أن تنتزع منها شيئاً ؟

- مجرد بادرة ضعيفة ، بيترتون كتم عن زوجته انه تناول الغذاء في فندق دورسيت مع هذه المرأة المدعوة اسبيدر .
فغمغم هوارتون قائلاً :
- أعتقد أن لهذا صلة باختفائه .

- ربما ، فقد سبق ان استجوبت كارول اسبيدر ، أمام لجنة فحص النشاط المحملي لأمریکا ، وإن كانت قد استطاعت ان تثبت براءتها .
وتساءل هوارتون :

- وهل اتصلت مسز بيترتون بأحد فأصدر اليها تعليماته بالسفر إلى الخارج
- لم يزرها احد في بيتها ، وإن كانت قد تلقت بالأمس خطاباً من رجل
بولندي هو ابن خالة بيترتون الأولى ، وقد كان هنا في مكنتي منذ قليل
يستفسر عما لدي من أنباء .

- أيكون هو الذي حرضها على السفر ؟

- هذا محتمل ، وإن كنت لا أدري الحقيقة .

- وهل تنوي أن تضعه تحت المراقبة ؟

فأجاب غيسوب :

- بل وضعته فعلاً ، فقد دققت الجرس السري مرتين بمجرد خروجه من
مكنتي . .

فضحك هوارتون قائلاً :

- يا لها من رموز سرية تفيد في حالات الاستعجال

وعاد هوارتون يتساءل :

- وإلى أية جهة تنوي بيترتون أن تسافر ؟ إلى سويسرا ؟
- بل إلى مراکش أو إسبانيا .
- وقلب غيسوب بظرف أصبعه التقارير المكذبة أمامه
- هذان هما البلدان الوحيدان اللذان لم يرد إلينا منهما أي تقرير عن بيترتون .
- وتراخى غيسوب في مقعده ، وأسند رأسه على ظهر المقعد وهويقول :
- اني لم أقم بعطلة منذ شهر . ولعل مما يفيد صحي أن أسافر الى الخارج في هذه الأيام ..
- فضحك هوارتون وقال :
- طبعاً إلى مراکش أو إسبانيا ، وفي أعقاب مسز بيترتون .
- والتقت نظراتهما في تفهم كامل .

الفصل الثالث

« انتبهوا .. انتبهوا .. شركة ايرفرانس .. الرحلة رقم ١٠٨ إلى باريس .. »

ونهمض الجالسون في قاعة الانتظار في مطار هيث رو وتقاطروا متجهين الى الباب ، ينشدون الطائرة التي ستقلهم الى باريس .
وتنازلت هيلاري كرافن حقيبة سفرها الصغيرة الحجم ، وانضمت الى موكب المسافرين .

كان الجو بارداً لاذعاً في ساحة المطار ، وشدت هيلاري معطفها الفراء حول عنقها تقي نفسها لسمات البرد ، وهي تقفز المسافرين الى حيث تستقر الطائرة .

إذن فقد انتهى الأمر ، ها هي ذي منطلقة هاربة بعيداً عن الاكتئاب ، والبرد ، والبؤس المميت . هاربة الى الشمس المشرقة ، والسماء الزرقاء الصافية ، الى حياة دافئة .. وستطرح وراءها كل الهموم والأثقال ، هذه الهموم المتسمة بالبؤس والقلق .

وقابعت طريقها الى ممر الطائرة ، واستقرت على المقعد الذي ارشدها اليه المضيف .

ولأول مرة منذ شهور خالجهما شعور من الراحة من العذاب الذي أمضتها

بقسوة حتى لقد احسست منه بما يشبه الألم الجسدي .
وتمت تحدث نفسها في أمل ورجاء :

- سأهرب ، سأبتعد .. نعم سأبتعد !
وانتزعها من خواطرها هدير الطائرة الصاخب ، ولكنها ما لبثت أن
عادت تردد في نفسها :
- الان سأذهب وابتعد .
وبدأت الطائرة تنزلق على أرض الممر ، وقد شد المسافرون أحزمة
الوقاية على بطونهم .
ودارت الطائرة نصف دورة في ساحة المطار ، ثم توقفت تنتظر إشارة
الرحيل .
وخطر لها :

- ما يدريني ان الطائرة قد تتعطم ، وعندها قد تكون تلك النهاية ،
الحل الموفق لكل شيء .
وخيل اليها انهم انتظروا في ساحة المطار وقتاً طويلاً لا ينتهي ،
مترقبين إشارة الرحيل الى الحرية .
ومست مخاطب نفسها :

- يبدو اني ان أسافر أبداً ، سأظل هنا حبيسة لا أستطيع الفرار .
وأخيراً هدرت المحركات من جديد ، وبدأت الطائرة تجري على الممر الممهّد
المرصوف .. أسرع ، ثم أسرع ثم أسرع .

- ولكن من يدري .. ربما لن تعمل في الجو .. أتكون هذه إذن هي
النهاية ؟

ولكن الطائرة أخذت تعمل في الجو ، وبدأوا يبتعدون عن سطح
الأرض ، وبدأ كل شيء صغيراً ضئيلاً - حتى الهموم تضاءلت وانكشفت
وحق القلق تبدد وتوارى ، وبدأت الأبنية والسيارات كأنها لعبة أطفال .

والآن كانوا فوق السحاب البيضاء ! المشوبة بمسحة رمادية .. لا بد انهم الآن فوق القنال الانجليزي .
وأرخت هيلاري جفونها ، وأطبقت عينيها ، وأسندت رأسها الى ظهر المقعد .
الحرب ! الحرب ! . فما هي ذي قد غادرت .. انجلترا الى غير رجعة .. ها هي ذي قد تركت خلفها ناجيل ، وتركت خلفها تلك البقعة الحزينة المقبضة التي هي قبر بريندا .
كل ذلك تركته خلفها ، بعيداً ، بعيداً .
وفتحت هيلاري عينيها ، وعادت تطبقها مرة أخرى ، ثم ما لبث النعاس ان طغى عليها واستغرقت في النوم .

* * *

عندما صعدت هيلاري من نومها كانت الطائرة في طريقها الى الهبوط .. لا بد اذن انهم وصلوا باريس .
وزايلت كرسيتها ، وحملت حقيبتها ، ونزلت من الطائرة الى سيارة المطار واكنها لم تكن باريس تلك التي نزلوا فيها .
أتت المضيفة الجوية الى السيارة ، وتحدثت اليهم بذلك الصوت الناعم الحنون المألوف عن المضيفات :
- لقد اضطررنا ان نهبط في « بوفيه » لأن الضباب كثيف في باريس .
ونظرت هيلاري من وراء زجاج السيارة لكن الرؤية كادت تستحيل عليها فقد كانت بوفيه هي الأخرى غارقة في الضباب . وتوقفت بهم السيارة أمام مبنى خشبي عتيق ليس فيه إلا بضعة مقاعد وارايلك من الخشب .

وطفى على هيلاري شعور بالانقباض حاولت ان تدفعه عن نفسها ، ونغمم الرجل الجالس قريبا :

— انه مطار حربي قديم بلا تدفئة او شيء من وسائل الراحة ، ولكن ما أحسب وهم فرنسيون ان يبخلوا علينا بالشراب .

ونطق الرجل حقاً ، فما هي الا لحظات حتى أتى مضيف يدور عليهم بأقداح الشراب .

وتتابعت الساعات دون ان يقع جديد ، فيما عدا طائرات تنبثق متتابعة من أستار الضباب وتحط متزاحمة على أرض المطار الصغير ، وتكدست القاعة بمسافرين حائزين متذمرين من التأخير الذي طرأ على رحلاتهم .

وأخيراً ، عندما هبط الليل ، اتت سيارات الأتوبيس لتحمل المسافرين الى باريس .

كانت رحلة مئة مضجرة إنحشر الركاب في السيارات أربع ساعات الى ان شارفوا ضواحي باريس فبلغوها وقد انتصف الليل .

وأسمع هيلاري ان تحمل حقيبتها وتستقل تاكسيا وتضي الى فندق حجزت لها فيه احدى الغرف ، وكانت متعبة مكدودة ، تهفو الى حمام ساخن تلوذ بعده بالفراش .

وكان مقرراً ان تبحر الطائرة المسافرة الى كازابلانكا مطار اورلي في العاشرة والنصف من صباح اليوم التالي بيد ان مطار اورلي في ذلك الصباح الممهد كان خالية من الفوضى والارتباك : مسافرون يروحون ويغدون ، موظفون يدخلون ويخرجون ، حاملون يذهبون ويحيثون والطائرات مرصوفة على أرض المطار ، مكدسة متزاحمة ، اذ كان هناك تأخير في مواعيد السفر بسبب الضباب .

وقال لها موظف الاستعلامات :

— مستحيل يا سيدتي ان تسافري على الطائرة التي سبق ان حجزت لنفسك

فيها مقعدا ، فأرجوك ان تفتظري في قاعة الاستراحة حتى يخلو مقعد في طائرة أخرى .

وعلى الملل مضت الى قاعة الانتظار ترقب مقعدا يخلو .

وبعد ساعة قيل لها ان هناك مقعدا خاليا بالطائرة المسافرة الى دكا ، وفي الطريق اليها تهبط في كازابلانكا وان كانت سوف تصل اليها متأخرة ثلاث ساعات عن الموعد الذي كانت ترجوه .

قال الموظف : هذا كل ما استطيع فعله لأجلك يا سيدتي .

وتقبلت هيلاري كرافن المقعد المعروض عليها بغير تذمر واحتجاج ، دون ان تتشبهت بالمقعد الذي سبق ان حجزته على الطائرة الى كازابلانكا الأصلية .

وحين هبطت في كازابلانكا همس المحال الذي أخذ حقائبها :
- انك لمحظوظة يا سيدتي ان اتيت بهذه الطائرة الاضافية بدلا من طائرة كازابلانكا الأصلية التي كان مفروضا ان تصل قبل هذه ، فإنها تحطمت ومات طاقمها ومعظم الركاب ، فلم يبق منهم على قيد الحياة الا أربعة أشخاص او خمسة نقلوا الى المستشفى مصابين باصابات جسيمة .

وكان اول رد فعل في نفسها ان ظفرت عليها شعور جارف بالغضب وعلى غير وعي منها اصطخب داويا في رأسها هذا السؤال :

- يا الهي !. لم لم أكن انا في هذه الطائرة ؟ لو اني كنت فيها لانتهى كل شيء !. لا قلق ولا أحزان ولا هموم !. ألا ليتني كنت فيها ؟. ان الذين استقلوا هذه الطائرة كانوا متشبثين بالحياة ، أما انا فلم كنت أرحب بالموت .

وأنت إجراءاتها الجهركية في دقائق قليلة ، ومضت الى إحدى سيارات التاكسي ذاهبة الى فندقها .

وفي غرفتها فتحت النوافذ وأطلت على المدينة .. كانت السماء صافية زرقاء والشمس مشرقة فياضة بالصوء .

كان هذا ما ترجوه .. كانت هذه هي الحياة التي سعت اليها .. الفرار ..
الهرب ، بعيدا عن انجلترا .
بيد انه في هذه اللحظة اعتصرت قلبها يد باردة ساحقة ، فقد أدركت
في صدمة هزت كيائها ان الأمر هنا لا يختلف عما كان في انجلترا : لا
مهرب ولا فرار ! .

كان قبر بريندا في انجلترا ، ومايجل سوف يتزوج امرأة جديدة في انجلترا .
فلماذا توهمت انها سوف تنسى هذا وهي هنا في مراکش ؟
ان الذكريات تلاحقها ، والماضي يجري في أعقابها ، ولا شيء يمكن ان
يجعلها تنسى .
ان الخلاص الوحيد في حبوب منومة تفرغ منها في أحشائها قنينة كاملة .
وانبعثت واقفة وقد استقر رأسها على ان تبادر الى الصيدلية ، ففيها شفاؤها
من المتاعب والهموم والأحزان .
ومضت الى الخارج مسرعة كي تعود بما يجعلها تنام ، تلك النوم الأبدية
المريحة التي تهفو اليها .

* * *

كانت هيلاري كرافن ، تعتقد ان من السهل شراء الحبوب المنومة في
البلاد الأجنبية . ولكنها ، لدعشتها ، ما لبثت ان أدركت انها كانت
مخطئة في ظنونها .
فقد رفض الصيدلي ان يزودها الا بحبتين اثنتين ، وان لها ان شاء المزيد
ان تأتية بتذكرة طبية .
فشكرته هيلاري ودست في حقيبتها الحبتين . وفيما هي تغادر الصيدلية

كادت تصطدم برجل طويل القامة ، جاد السمات ، فاعتذر لها بأدب بالانجليزية .
 وسمعتة وهي تنصرف يسأل الصيدلي عن معجون أسنان .
 وأحست بنفصة انقبض لها قلبها ، فقد كان المعجون الذي طلبه من نفس
 الماركة التي يؤثر فاعلها .

وعبرت الطريق إلى الصيدلية المقابلة ، وأتبعتها بغيرها حتى اكتملت أربعاً
 ولفت نظرها ان لمحت في الصيدلية الثالثة نفس الرجل الجاد السمات ذا الوجه
 الشبيه بوجه البومة ، وكان يسأل عن نفس معجون الأسنان الذي طلبه في
 الصيدلية الأولى .

وعادت هيلاري إلى فندقها ، فأبدلت ملابسها ونزلت تتناول العشاء وقد
 كادت القاعة تقفر من الزلاء ولكنها لمحت رجل معجون الأسنان ، جالساً إلى
 مائدة ملاصقة للجدار يتناول طعامه وقد نشر أمامه صحيفة فرنسية ،
 واستغرق في قراءتها .

وأمرت لنفسها بطعام شهى وزجاجة من النبيذ ، وأقبلت تأكل وتشرب
 بنهم وهي تردد في نفسها .
 - وبعد فذلك هي المغامرة الأخيرة ثم ينتهي كل شيء .

وصعدت إلى الغرفة وقد فرغت من الطعام ، فأغلقت الباب وراءها بالمفتاح
 وخلعت ثيابها وتناولت اللافافات الأربع التي أتت بها من الصيدليات ، وفضتها
 وتناولت منها الحبوب المنومة ، ورصتها على المنضدة أمامها ، ومضت
 تتأملها بصمت .

لم تكن مترددة ، ولم تكن خائفة ، فذلك هو سبيل الخلاص .. ذلك
 أخيراً هو الفرار . الفرار الحقيقي .

والأمر بعد حين بسيط : تبلع الحبوب ، وتزودها بجرعة من الماء ، ثم
 تستلقي على الفراش وتنام ثم لا تستيقظ أبداً من النوم .
 لم يكن في نفسها من الدين وازع يرددها عما هي بسبيله ، فقد أتت

وفاة بريندا على كل ما بنفسها من شعور ديني ، فليس ثمة شيء له عندها قيمة أو أهمية .

نعم .. إنها الآن بلا قيد يعرقل خطاها ، متأهبة للشروع في رحلتها إلى المصير المجهول .

ومدت يدها وتناولت الحبة الأولى ، رفعتها إلى فمها . وفي هذه اللحظة طرق باب الغرفة نقرات خفيفة .

قطبت هيلاري جبينها وتجمدت يدها في الهواء قبل ان تبلغ فمها . ولكنها لم تزل مكانها لا تفتح الباب ، فمها يكن من أمر فهي لن ورد عليه ، فلا يلبث أن ينصرف .

ولكن الطرقات عادت تدق الباب من جديد ، وفي هذه المرة كانت بصوت أشد وأعلى .

وفجأة اتسعت عيناها دهشة وهما مستقرتان على الباب .
رأت المفتاح الذي في ثقب القفل من الداخل يدور حول نفسه ثم يقفز من ثقبه الى الأرض مرسلًا رنينًا معدنيًا ، ثم رأت مقبض الباب يتحرك ويدور ثم انفتح الباب وإذا برجل يدلف إلى الغرفة .

وعرفت فيه على الفور ذلك الرجل الحاد السمات ، الذي رآته من قبل مرتين في الصيدلية يشتري معجونًا للأسنان ، ثم رآته يتناول بعد ذلك عشاءه في الفندق .

واستدار الشاب فأغلق الباب وتناول المفتاح من على الأرض ودسه في الثقب وأوصده ثم جاء عبر الغرفة اليها واستوى على أحد المقاعد جالسًا وقال في بساطة :

– إني أدعى غيسوب

وتضرج وجه هيلاري احمراراً ، ومالت اليه عبر المنضدة التي بينها ، وفي صوت يخالطه الغضب سألته :

– هل لي أن أسأل عما أقيمت تفعله في غرفتي ؟
فعدجها بنظرة طويلة ثاقبة وقال يسأل :
– ما أعجب هذا ! إني أنا الذي أقيمت أسألك عما تفعلين أنت في
غرفتك ؟.

فحملت فيه باستغراب وتساءلت :
– إني لا أفهم ما تعني ؟
فأدار رأسه ، يتأمل الحبوب المنومة على المنضدة ، ثم تطلع اليها
قائلة :

– لو انني مكانك لما فعلت هذا ، فليس الأمر كما تظنين .. انك تعتقدين
انك تتناولين الأقراص ، وتستغرقين في النوم ، ثم لا تنهضين أبداً ولكن ما
سوف يحدث شيء غير هذا تماماً .. فستعانين أعراضاً اليمة .. تقلصات ، وقيء
وآلام تمزق المصارين ..

وإذا كانت طبيعة جسمك مقاومة للمخدرات ، فإن الحبوب المنومة لا تبدأ
إلا بعد فترة طويلة ، وفي خلال هذه الفترة يعثرون عليك ويحاولون إنقاذك ،
وتعرضين لأشياء مؤلمة ، غسيل معدة زيت خروج قهوة ساخنة كما يهزونك بعنف
ويلتظمون وجهك حتى تستفيقي ، فهل أنت مستعدة لهذا ؟

وتراخت مسر كرافن في جلستها ، واغتصبت ابتسامة خفيفة ،
وقالت :

– يا لها من فكرة سخيفة ! إذن فأنت تتخيل انني كنت أنوي
الانتحار ؟

– انني لا أتخيل ، ولكنني على يقين . فقد دخلت الى الصيدلية لأشتري
محبوناً للأسنان حين كنت هناك تطلبين حبوباً منومة ، ولما لم أجد النوع الذي
أبغيه ذهبت الى صيدلية أخرى فلماذا بك أمامي تشتتين حبوباً للمرة الثانية
وبدا لي الأمر غريباً فرأيت ان أتعقب خطواتك لأرى ما يكون من أمرك

وطبعاً لم يكن من المسير علي بعد ذلك أن أتكهن بما تنوين .
 - إنك قد تقدر أن تمنعني الآن من الانتصار ، وقد تقذف بالحبوب
 من النافذة ، ولكنك لن تقدر أن تصدني غداً عن شراء حبوب أخرى
 أو أن القي بنفسي الى الطريق من سطح عمارة عالية ، أو أن أرتقي أمام
 قطار مسرع .

- انك قد تحاولين ان تنتحري اليوم ، هذا صحيح ولكن إذا جاء
 الغد ثاب المنتحر الى رشده وعأوده صوابه .. هذا عادة ، ما يحدث
 المنتحرين .

- هذا اذا كان المنتحر قد أقدم على فعلته ، وهو في فورة يأس مفاجيء
 أما أنا فقد تدبرت الأمر في هدوء وبرود حتى استقر عليه عزمي .. ألا تعلم
 يا مستر جيسوب انني امرأة ليس لديها ما تعيش من أجله ، وما يجعلها
 تثبت بالحياة .

ثم أردفت :

- زوجي الذي همت به حباً هجرني ، وابنتي الوحيدة التي أعبدتها ماتت
 بالالتهاب السحائي ، وأنا بعد امرأة بلا أصدقاء أو أقارب وليس لي هواية
 تستهويني أو عمل يشغلني ، فلم اذن أعيش ؟

وبعد سكتة قصيرة رفعت اليه رأسها قائلة :

- والآن يا مستر جيسوب هل لك أن تنصرف وتتركني لشأني ؟

- لم يحن الوقت ، فلاني لم أفرغ بعد من حديثي .

ثم استطرده على عجل :

- الآن عرفت انك كارهة لدنياك غير متشبثة بالحياة وانك تنوين الانتحار
 ولكن الذي أتساءل عنه هو: لم آثرت الحبوب المنومة وسيلة للانتحار ؟

فبدت الدهشة في عينيها وتساءلت :

- ماذا تقصد ؟

– لقد عرفنا أن الحبوب المنومة غير مضمونة النتيجة فضلاً عما يصاحبها من آلام ، وكذلك الشأن بالنسبة إلى الارتقاء تحت القطار أو القاء نفسك من مبنى مرتفع ، انك قد تصابين بعاقة أو بالشلل أو ببتر ذراعيك أو ساقيك ، ولكنك ستعيشين هناك طرق أخرى للانتحار النجح وأضمن .

– طرق أخرى .

– طبعاً .. طرق أخرى حافلة بالآثار والمتعة ، ومع ذلك فلست أكتمك انك قد تنجحين من الموت ، ولكنك على الأقل ستجدين فيها تسليمة وطرافة تشغل فراغك وتبدد همومك .

فهزت رأسها في حيرة وتساءلت :

– الحق اني لا أدري فيم تتحدث .

ولاذ بالصمت برهة .

ثم أردف :

– لسي تدركي ما أبغي لا بد أن أروي لك قصة صغيرة ، فهل لك أن تعبريني سمعك .

– اني مصغية اليك فهات ما عندك .

– انك طبعاً تظالعين الصحف ، ولا بد انك قرأت عن حوادث اختفاء بعض العلماء في الشهور الأخيرة ، وكان آخرها اختفاء عالم الذرة توماس بيترتون .

فقال هيلاري :

– نعم ، لقد قرأت شيئاً عنه في الصحف .

واستطرد جيسوب :

– اننا في بلد حر ، ولئن شاء أن يرحل اني شاء ، ولكن في مثل هذه الظروف يجب أن نعرف لماذا اختفى هؤلاء القوم ، وأين ذهبوا ، وكيف ذهبوا هل اختفوا طواعية واختياراً من تلقاء انفسهم ، ام انهم اجبروا على

الذهاب ، او اختطفوا . او هددوا ، وما هو الطريق الذي سلكوه في سفرهم ، وما هي المنظمة التي تتولى أمرهم ، وما هو الهدف الذي ترمي اليه المنظمة ، اننا نسمى إلى رد شاف على هذه الأسئلة ، ولعل في مقدورك أنت أن تساعدنا على الحصول على جواب على هذه الأسئلة .

– انا ، ولكن كيف ، ولماذا .

فقال غيسوب :

– منذ شهرين اختفى توماس بيترتون فجأة وهو في باريس ، تاركاً امرأته في لندن ، وقد نزل اختفاؤه عليها نزول الصاعقة ، او كذلك أدعت وزعمت وقد أقسمت على انه ليس لديها أية فكرة عن مكانه ، وانها لا تعرف من الأمر شيئاً ، وقد تكون صادقة في أقوالها ، أو كاذبة ، وأنا من الذين يمتقدون أنها كاذبة .

وتابع غيسوب الحديث قائلاً :

– وضعنا مسز بيترتون تحت المراقبة الدقيقة ، ومنذ أسبوعين جاءت تزورني في مكنتي ، وذكرت لي أن طبيبها امر بأن تسافر إلى الخارج للراحة والاستجمام لأنها ضاقت بأصدقائها وأقاربها والخبرين الصحفيين الذين لا يفتأون يلحون بالسؤال عن زوجها وكيف اختفى ، حتى لقد كادت تصاب بانها عصبية .

وبالأمس غادرت مسز بيترتون إنجلترا الى كازابلانكا .

فقلت متبرمة :

– ولكن ما شأني أنا بكل هذه القصة .

فأجابها غيسوب باسمياً :

– إن لك شأنًا كبيراً لأن شعرك احمر .

– ماذا تقصد .

– اهم ما يميز مسز بيرتون هو شعرها الأحمر النحاسي ، وأهم ما يميزك

انت ايضاً نفس الشعر الأحمر النحاسي .

- فليكن ، مجرد صدفة ، ولكن ما أهمية ذلك .

- أهميته ان طائرة كازابلانكا التي سافرت فيها مسز بيترتون تحطمت وقتل معظم من فيها ، اما هي فأخرجت من تحت الأنقاض ، وما تزال على قيد الحياة ونقلت الى المستشفى ، ولكن الأطباء يرون انها لن تعيش إلا حتى صباح الغد .

وظلت هيلاري تتابعه بعينين تتساءلان عما ينبغي منها .
واستطرد غيسوب :

- غداً ستلفظ مسز بيترتون أنفاسها الأخيرة ، ولكنها مع ذلك ستواصل رحلتها لأنك ستتمصين شخصيتها ، وتنتحلين اسمها .
وظلت هيلاري تحملق فيه كالشده فاعرة فمها .
ثم قالت :

- ولكنهم طبعاً سيعرفون في الحال أني لست مسز بيترتون ؟

- هذا يتوقف على الذين سيقابلونك ، وهل سبق أن رأوا مسز بيترتون من قبل ؟ إن مثل هذه المنظمات تعمل عادة على أسلوب الخلايا المستقلة ، فكل خلية مكونة من ثلاثة أو أربعة أشخاص لا يعرفون الخلية الأخرى ، حتى إذا وقعوا في يد الشرطة استحال عليهم أن يشوا بالآخرين ، لأنهم لم يروهم من قبل .
ثم استطرد :

- ومعنى هذا أن الذين سوف تلتقي بهم مسز بيترتون لا يعرفون عنها إلا انها ذات شعر أحمر نحاسي ، وعينين زرقاوين خضراوين ، وطولها خمسة أقدام وسبع بوصات ، وليست لها علامات مميزة ، هذه هي الأوصاف المدونة في جواز سفرها ، من حسن الحظ ، أن هذه الأوصاف جميعاً تنطبق عليك .
فقلت معترضة :

- ولكني لا أكاد أعرف شيئاً عن مسز بيترتون
- سنزودك بما يكفي من المعلومات ، وسندبر الأمر على النحو التالي :
ستدخلين المستشفى ، وعندما يحكم القضاء وتموت مسز بيترتون ستحلين
مكانها وتنتحلين اسمها ، اما هي فتدفن متخذة اسمك انت أي سيقال أن التي
ماتت هي بارتيجاج في المنح في كارثة الطائرة ، وهذا يتيح لك فرصة التخلص
من المأزق التي قد تقعين فيها بأن تتظاهري بفقدان الذاكرة من حين لآخر .
ومع ذلك فقد ينكشف سرك وتقتلين ، ولكني لا أحسبك تبالين بالموت ما
دمت لا تقيمين وزناً للحياة وتتشدين الانتحار ، فما رأيك ؟ أتقبلين
هذه المهمة ؟

ودون تردد أجابت هيلاري كرافن :

- ولم لا ؟ لقد قبلت أن أكون مسز بيترتون .
فقال غيسوب :

- إذن هيا بنا فلا وقت لدينا نضيعه .

الفصل الرابع

على مقعد حديدي صلب جلست هيلاري كرافن بجانب الفراش الذي ترقد عليه وليف بيترتون ، معصوبة الرأس بالضهادات ، غائبة عن الوعي . وعلى الناحية الأخرى من السرير وقفت إحدى الممرضات والطبيب يتأملان المصابة .

أما غيسوب فكان جالسا في ركن من الغرفة . وتحول الطبيب إلى غيسوب قائلا بالفرنسية :
- ان يطول الأمر ، فإن النبض ضعيف جداً ، ولكن هل تموت قبل أن تسترد وعيها ؟

- هذا ما أستطيع أن أقطع به .. ربما استردت وعيها في اللحظات الأخيرة .

- ألا تستطيع أن تعطيها منبهاً ؟
وهز الطبيب رأسه نفياً .. وغادر الغرفة والمرضة في أعقابيه .
وقال غيسوب يخاطب هيلاري كرافن .

- لىم كنت أتمنى أل تسترد وعيها ولو لحظات حتى أحصل منها على شيء من المعلومات ، أي شيء مجرد كلمة عابرة . مجرد إشارة أو كلمة السر . حاولي أن تنصقي اليها جيداً ، وإذا تكلمت فحاولي أن تستدريجياً ،

فقد تنطق بشيء حق في غيوبتها .

فسأله :

– وهل نصارحها بأنها تحتضر وإنها لن تعيش ؟

– لا أدري .. يجب أن أفكر في هذا .

* * *

مضت هيلاري تتأمل المرأة الراقدة على الفراش ..

ترى هل جاءت حقاً إلى مراکش لتقابل ذلك الزوج الذي اختفى ؟

أم إنها كانت موشكة على الانهيار فجاءت تنشد الراحة والاستجمام ؟

ومر الوقت ، حتى انقضت ساعتان ، ثم فتح الباب وجاء الطبيب يعود

مريضته مرة أخرى .

جس نبضها .

ثم قال :

– هناك بعض التغيير ، وإن كان كل شيء يوشك أن ينتهي .

وتلملت المريضة في فراشها قليلاً ، وفتحت عينيها لتجد نفسها تتطلع

مباشرة في عيني هيلاري .

ثم عادت وأطبقتها من جديد .

ومست في صوت لا يكاد يبين :

– اين أنا ؟

وفي رفق أخذ الطبيب بيدها وأجاب :

– انك في المستشفى يا سيدتي ، لقد وقع حادث للطائرة .

فردت هامسة :

– الطائرة :

وسألها الطبيب :

- أريد أن تتصلي بأي شخص هنا في كازابلانكا ؟ إننا نستطيع أن نبلغه أية رسالة منك .

فرفعت إلى الطبيب عينين باديتي الألم وردت :
- لا .

ثم عادت من جديد إلى هيلاري وتساءلت :
- من ، من أنت ؟

ومالت هيلاري فوقها ، وفي صوت جلي واضح النبرات قالت :
- إني قادمة لتوي من إنجلترا على إحدى الطائرات ، فإذا كان في وسمي أن أفعل شيء لأجلك فأخبرني على الفور .
- لا .. لا شيء .. إلا إذا .

وصمتت وتطلع الطبيب إلى المرأتين ، ثم مضى يغادر الغرفة ، وفي أعقابها الممرضة .

دخلت المرأتان كل إلى صاحبتهما ، وبدأ أن مسز بيترتون تجاهد لكي تنطق بشيء ، فقالت :
- أخبريني . أخبريني .. هل ؟ هل ؟

وأدركت هيلاري دون عناء ما تسأل عنه مسز بيترتون فأجابت :
- نعم .. إنك تحتضرين .. أهذا هو ما تريد أن تسألي عنه ؟ والآن سأحاول أن أتصل بزوجك ، فهل تريد إبلاغه رسالة منك ؟
فردت المرأة التي تحتضر :
- أخبريه . أخبريه . أن يكون على حذر .. بورييس .. بورييس ..
بورييس شخص خطر .

وتسارعت أنفاسها لاهثة ، وتنهدت .. ومالت هيلاري فوقها
تسألها :

– أيمكنك أن تذكر لي شيئاً يساعدني في رحلتي . أي شيء يمكنني من الاتصال بزوجك ؟

– الثلج .

واستبدت الحيرة بهيلاري ، وجعلت تردد الكلمة في دهشة :

– الثلج ؟. الثلج ؟

ومضت تكررهما تباعاً دون أن تفقه المقصود منها .

فلاحت على شفقي المحتضرة إبتسامة واهنة ، ثم ضحكت ضحكة مخدوقة لا تصاد تسمع ، وانفجرت شفتساها عن أغنية شائعة من أغنيات الطفولة :

« الثلج ، الثلج ، الثلج الجميل .. »

« تدوسين على قطعة منه ، وتزلقين .. »

« ثم تذهبين .. تذهبين .. »

وأخذت المحتضرة تردد بصوتها الواهن الضعيف :

– تذهبين ؟. تذهبين ؟. إذهي وحدثيه عن بوريس .. إني لا أصدق

هذا .. لا أستطيع أن أصدق ، ولكن ربما كنت صحيحاً .. وإذا كان

فيجب أن .. يكون على حذر .

فاختلجت المينان ، واختلجت الشفتان ، وماتت أوليف بيترتون .

* * *

كانت الأيام الخمسة التالية أياماً مضيئة مرهقة .

لزمت هيلاري كرافن في المستشفى غرفة خاصة لا تبرحها ، منهمكة

في تلقي دروسها ، وفي كل مساء تمتحن فيما لقنته طوال ساعات

النهار .

على ورقة أمامها سطرت كل المعلومات التي يعرفونها عن حياة أوليف بيترتون ، وكان على هيلاري أن تعيها في ذاكرتها ..

المنزل الذي كانت تسكنه أوليف .. الخدم الذين عملوا لديها ، أسماء الأقارب والأصدقاء واسم كلبها المدلل وطائر الكناريا .. كل التفاصيل الخاصة بحياتها ، خلال الستة شهور الماضية ، منذ تزوجت .. حفلة القران ، وأسماء الوصيفات .. ما الذي كانت تفضله مسز بيترتون من طعام وشراب .

وضاقت مسز هيلاري كرافن بكثرة ما لقت .

فسألت جيسوب :

— وهل لهذا كله أهمية؟

— ربما نعم ، ربما ، ولكن ينبغي أن تكوني متأهبة لكن المفاجآت ، فقد تباغتين بسؤال ، أي سؤال ، فيجب أن يكون الرد حاضراً ، دون أي تفكير أو تردد .

وأخذ يلقنها دروساً في الشفرة ، وفي الكتابة السرية ، وفي وسائل الاتصال الخفية .

وأخيراً أبدى جيسوب رضاه وارتياحه قائلاً :

— إنك في الحق قلميذة نجيبة ، يمكن الركون اليها .. لأنني أحب ان أذكر لك انك لن تكوني منعزلة عنا .. فسوف نكون أتبع لك من ظلك معظم الأوقات

وتساءلت هيلاري :

— وماذا يكون من أمري عندما أبلغ نهاية المطاف .. أي عندما أرى نفسي وجهاً لوجه أمام توماس بيترتون ؟

فمز جيسوب رأسه بجديّة وقال :

— هنا موضع الخطر ؟. إذا سارت الأمور على الصورة التي نتخيلها فإننا سنكون بجانبك ، فحميك ونذود عنك .
ولكن يجب أن أذكرك بما سبق أن قلته لك ، وهو ان المخاطرة هي أساس هذه المهمة ، فمن المحتمل أن ينكشف أمرك ، فيكون القتل مصيرك .

ثم أردف :

— بعد خروجك من المستشفى ، سننزلين في نفس الفندق الذي حجزت فيه مسر بيترتون غرفة لها ، وسوف ترتدين ملابسها ، وتنسقين شعرك على الطراز الذي اعتادته .
وقد عهدنا إلى طبيب من أطباء التجميل أن يدرس وجهك وان يلصق عليه بعض رقائق من البلاستيك ، تجعلك أدنى شبيهاً إلى أوليف بيترتون .

وحتى إذا فطن أحد إلى التحامها ، فسوف يمزو هذه الآثار إلى حادث الطائرة .

وتأملته هيلاري بنظرة تقدير وإعجاب وقالت :

— الحق انك دقيق في عملك لا تغفل شيئاً .

— هذا واجبي ، لأن أتعفه الهنات كفييلة بأن تفسد أدق التدبيرات .
والآن أرجو ان تقهي علي ما حدث بينك وبين أوليف بيترتون . هل لفظت شيء قبل أن تموت ؟

وروت له ما سمعته من المرأة التي كانت تحتضر وقالت :

— وأهم ما رددته هو قولها « قولي له ان بوريس شخص خطر » .

فقال جيسوب :

— بوريس ؟. لا بد إذن انها تقصد الميجور بوريس جلايدر فقد زارني في مكثتي زاعماً انه ابن عمه زوجة بيترتون الأولى ، وإن لم أكن متأكداً من

حقيقة شخصيته .. وقد أمرت بتعقبه عند إخروجه من مكنتي ، فذهب لتوه إلى السفارة الأمريكية ، ثم لم يخرج منها ، ويبدو انه تسلل من أحد الأبواب الخلفية .

فقلت هيلاري :

- هل لك أن تصف لي؟

فأدلى اليه بأوصافه ، ثم أردف :

- صدقت مسز بيترتون ، فالماجور بريس جلايدر شخص خطر

الفصل الخامس

في قاعة الاستقبال في فندق سان لويس في كازابلانكا جلست ثلاث سيدات كل منهن منهمكة بشأن يخصها .

فالأمريكية مسز كالفين بيكر جالسة إلى مكتب صغير مقبلة على تسطير بعض الرسائل .

والانجليزية مس هيدرنجتون متراخية في مقعد ضخم ، وبين يديها إبرة التريكو تطرز جاكنه من الصوف من النوع الذي تألف السيدات الإنجليزيات ارتداه .

أما الفرنسية مدموازيل جين ماريكو ، فكانت تجلس بجانب إحدى النوافذ ، تنظر إلى الخارج ، وهي تتشأب من حين لآخر أو تدير بصرها إلى المرأتين بضيق وملل .

وكانت مس هيدرنجتون ومسز بيكر قد أمضيتا بضع ليال تحت سقف فندق سان لويس ، فتم بينهما التعارف ، وذلك ان مسز كالفين بيكر بسجييتها الأمريكية المتألفة كانت لا تفتأ تتحدث إلى أي إنسان بسماحة وانطلاق .

وبرز في مدخل القاعة فرنسي تبدو عليه سمة رجال الأعمال ، ثم ارتد عنها راجعاً حين رآها تكاد تبدو خالية وقد القى على جين ماريكو

نظرة أسف .

فأخذت مس هيندرنجتون تعد الغرز الذي طرزتها ، ثم همست مخاطب نفسها :

— والآن ما هو نوع الغرزة التالية ؟

ووصلت امرأة أخرى ، طويلة القامة حمراء الشعر ، فأطلت على الغرفة ، وبدأ عليها التردد قليلاً ، ثم استدارت تسير في الممشى إلى قاعة الطعام .

فانتبهت مسز كالفين ومس هيندرنجتون مما كانتا فيه ، ودارت مسز بيكر حول المكتب الذي كانت تجلس إليه ، وهمست في صوت به رنة من الانفعال :

— رأيت يا مس هيندرنجتون هذه المرأة ذات الشعر الأحمر ، التي أطلت على الغرفة ثم انصرفت ؟ إنهم يقولون إنها الوحيدة التي نجت من كارثة الطائرة التي سقطت في الأسبوع الماضي .
وقالت مس هيندرنجتون :

— لقد شاهدتها تأتي بعد ظهر اليوم إلى الفندق في عربة الإسعاف .

— قد أخبرني المدير أنها وصلت من المستشفى رأساً .
ثم أردفت :

— ترى هل من الحكمة أن تخرج من المستشفى بمثل هذه السرعة وهي التي كانت مصابة بارتجاج في المخ ؟
فقالت الأخرى :

— إن ببعض أجزاء وجهها شريطاً لاصقاً من أثر إصابتها بالزجاج المشم فيما أظن . إنها لمحظوظة إن نجت من الحريق .

فقالت مسز كالفين :

— يا لها من مسكينة عانت الأحوال ترى هل كان زوجها معها ؟ وهل

لقي حتفه أم نجا من الموت ؟
 - لا أظن ، فقد ورد في الصحف انه لم ينج من ركاب الطائرة إلا امرأة واحدة دون أن يشيروا إلى أن زوجها كان بصحبتهما .

- هذا صحيح ، وقالوا انها تدعى مسز بيفرلي . كلا ، كلا ، بل مسز بيفرتون .. نعم ، هذا هو اسمها .
 فقالت مس هيدرنجتون وهي تفكر متأملة :
 - بيفرتون ؟ آه ، هذا يذكرني بما قرأته عنه في الصحف ، نعم إني متأكدة من ان هذا هو اسمه .

وقالت الآنسة ماريكو تخاطب نفسها بالفرنسية :
 - ألا تبأ لببير ! إنه لا يحتمل ولا يطاق ! لكن الصغير جولز لطيف ،
 والأب ذر مركز مرموق فليكن ! لقد اتخذت قراري .
 وفي خطي رشيقة متأنقة غادرت مدموازيل ماريكو قاعة الاستقبال .

★ ★ ★

بعد ظهيرة ذلك اليوم الذي ماتت فيه مسز بيفرتون ، وكانت قد مرت خمسة أيام على كارثة الطائرة ، خرجت مسز توماس بيفرتون المزعومة من المستشفى مستقلة إحدى سيارات الإسعاف إلى فندق سان لويس ، وهي تبدو شاحبة الوجه علية ، تدور بوجهها الضمادات والأربطة والشريط اللاصق .

واتصلت هيلاري باستعلامات الفندق وسألت عما إذا كانت هناك رسائل باسمها فأجيببت بالنفي .

كان عليها وهي تنتحل شخصية أوليف بيفرتون أن تتصرف بحرص وحذر

وأن لا تقدم على أية خطوة إلا بعد أن وروية .
إن من المحتمل ان تكون أوليف بيترتون قد تلقت تعليمات بأن تتصل
بتليفون معين أو شخص معين في كازابلانكا ، فأنى لها أن تهتدي
إلى ذلك ؟

إن كل ما لديها لا يمدد جواز سفر أوليف بيترتون ، وخطابها الخاص
بالاعتماد المالي ، ودفتر تذاكر السفر الصادر من شركة كوك السياحية ،
وإخطارات الحجز بالفنادق ، وهذه عبارة عن يومين في كازابلانكا ، وستة
أيام في فزان ، وخمسة أيام في مراكش .

وطبعاً انقضت هذه الأيام وفات موعدها بسبب حادث الطائرة ، لكن
لا بد أن هناك من سيجدها مرة أخرى ، فعليها أن تنتظر وتترقب . أما
خطاب الضمان المالي وجواز السفر فقد تولى أمرهما مستر جيسوب ، فذيل
الخطاب بتوقيع مزور لأوليف بيترتون ، ونزعت من الجواز صورة أوليف
وحلت مكانها صورة هيلاري كرافن .

وهكذا استقر الأمر لهيلاري كرافن وعليها ان تؤدي دورها باطمئنان ،
وإذا الفت نفسها موشكة أن تنزلق إلى مأزق ، فليس أسهل من أن تتشبث
بطوق النجاة ، فتزعم انها فقدت ذاكرتها ، أو بعض ذاكرتها ، نتيجة لإصابتها
بارتجاج في المخ .

ولاذت هيلاري بغرفتها أربع ساعات كاملة إذ المفروض لمن كان في مثل
حالتها لم يغادر المستشفى إلا منذ لحظات ان يستريح ويستجم . ولكنها
خلال هذه الساعات جعلت تستعيد إلى ذهنها كل ما لقنته عن حياة
أوليف بيترتون من دقائق وتفصيلات حتى لا تفاجأ بسؤال تعييبها الاجابة عليه
فتتكشف خدعتها بانتحال شخصية غيرها .

وأخيراً تجملت قليلاً ونزلت إلى قاعة الطعام لتناول العشاء .
وما ان تراءت في مدخل القاعة حتى انتهبتها الأنظار من كل صوب وفطنت

إلى همسات خافتة ترددت في أرجاء القاعة ، بل قد تبادرت إلى سمعها بعض العبارات ترددتها الحاضرات .

وأنت امرأة قصيرة القامة ، متوسطة العمر ، تميل إلى البدانة ، وسحبت مقعداً أدنته منها وأنشأت كلامها بلهجة أمريكية واضحة :
- معذرة إن طرحت عليك سؤالاً . الست انت السيدة التي نجت بمعجزة من كارثة الطائرة ؟

ونحت ميلاري الجملة التي كانت تتصفحها وردت :
- نعم .

- يا الهي ! كانت كارثة رهيبة ! يقال ان ثلاثة فقط هم الذين نجوا من الحادث ، اليس كذلك ؟

- بل اثنان ، فقد مات احد الثلاثة في المستشفى .

- رباه .. اني لم أسمع بهذا بعد يا مس يا مسز .
فقالت ميلاري :

- مسز بيترتون .

ونابتت الأمريكية تسألها :

- لكن أين كان مقعدك عند وقوع الحادث ؟ اعني في مقدمة الطائرة ام عند ذيلها ؟

وكانت ميلاري قد لقنت الرد على هذا السؤال وهي تتلقى دروس المعلومات التي قد تحتاج اليها في انتحال شخصيتها الجديدة ، فردت :
- بل في المؤخرة .

- انهم يقولون ان هذا اسم مكان في الطائرة اذا ما وقع لها حادث . اني دائماً اصر على الجلوس في المؤخرة .

ونظرت الى سيدة اخرى متوسطة العمر انجليزية السمات تجلس بقربها ،
فقالت مخاطبها :

– أسمع هذا يا مس هيدرنجتون ؟ تماماً كما كنت أقول لك بالأمس .
يجب ان تصممى على الجلوس في مؤخرة الطائرة معها حاولت المضيافة ان تغريك
بالجلوس في المقدمة .

فردت هيلاري ببساطة :

– ولكن لا بد للبعض ان يجلس في المقدمة .

– على أية حال لن اكون انا من هذا « البعض » .

ثم اردفت :

– اني ادعى مسز بيكر .. كالفن بيكر ، اني امريكية الجنسية ، وقد
وصلت لتوي من مؤكادور ، اما مس هيدرنجتون فجاءت من طنجة ، وقد
تم التعارف بيننا هنا .. ترى هل تنوين السفر الى مراكش ، يا مسز
بيترتون ؟

فردت هيلاري :

– هذا فعلاً ما كنت انوي ، ولكن الحادث افسد الترتيبات .

.. طبعاً .. طبعاً .. لكن يجب الا تفوتك زيارة مراكش .. الا تقريفي
على هذا يا مس هيدرنجتون ؟

فردت مس هيدرنجتون :

ولكن مراكش باهظة التكاليف وقيود تحويل النقد تزيد الأمر صعوبة
ومشقة .

فأكملت مسز بيكر :

– ان فندق « المأمون » من الفنادق الفاخرة فيمكنك ان تنزلي فيه .

فانبرت مس هيدرنجتون تقول معترضة :

– لكن اسعاره مرتفعة لا تحتمل ، ولا يمكن ان يخطر لي ان انزل فيه ،
اما انت يا مسز بيكر فالأمر بالنسبة اليك يختلف اذ لا قيود عليك معشر
الأمريكيين في تحويل ما تشاءون من الدولارات .

- فتابعتم مسز بيكر متسائلة :
- وهل تنوين يا مسز بيترتون زيارة بلاد اخرى ؟
- في نيتي زيارة فزان ، ولكن لا بد طبعاً ، ان أجدد الحجز في الفندق .
- طبعاً . فزيارة فزان او الرباط ينبغي ان لا تفوتك .
- وهل سبق لك زيارتهما ؟
- ليس بعد ، ولكني ذاهبة اليها قريباً وكذلك مس هيدرنجتون .
- وقالت مس هيدرنجتون :
- اعتقد ان الحي القديم لا يزال على حاله لم تفسده المدنية .
- واستمر الحديث على هذا النحو برهة من الوقت ، ثم استأذنت هيلاري في الانصراف متذرعة بالتمب ، إذ كان هذا هو أول يوم غادرت فيه المستشفى ، وصعدت إلى مخدعها .
- ترى هل كانت هذه الأسئلة التي وجهتها اليها مسز بيكر مجرد حديث عابر أم استجواباً مقصوداً له هدف مبيت ؟
- ومهما يكن فقد قررت هيلاري كرافن أن تمضي في اليوم الثاني إلى شركة كوك وتجدد الحجز في فزان والرباط ، وذلك ما لم يتصل بها أحد العملاء ليلقي اليها بتعليمات أخرى .
- وفي اليوم التالي لم تتلق أي خطاب او رسالة تليفونية . وما شارفت الساعة على الحادية عشرة حتى كانت في مكتب السياحة متخذة مكانها في الطابور الطويل المصطف أمام الشباك .
- وأخيراً حان دورها ، وبدأت تحدث كاتب الحجز عما ينبغي ، ولكن رئيسه بادر اليها من وراء مكتبه قائلاً :
- دعيني أولاً أهنيئك على نجاحك يا مسز بيترتون . أما عن الحجز فقد نفذت فعلاً تعليماتك التليفونية ، وها هي التذاكر جاهزة .

وتسارعت نبضات قلبها ..
إنها لم تتصل بشركة كوك ولم تعهد إلى أحد بالانصال بها !. إذن
فالترتيبات الخاصة بسفر مسز اوليف بيترتون ، إنما تنظم بمعرفة شخص
آخر مجهول .

وقالت :
- لقد أتيت بنفسى لأني خشيت أن يكونوا قد أغفلوا الانصال بكم .
وفي صباح اليوم التالي كانت مسز هيلاري كرافن في طريقها إلى فزان .

الفصل السادس

خيمت كازابلانكا أحلام هيلاري كرافن ، فقد بدت أشبه ببلدة فرنسية الطابع ، ليس فيها شيء من سمات الشرق السحرية التي كانت تهفو اليها .

فأخذ تنظر من نافذة القطار إلى الأراضي المنبسطة أمامها ، وهو منطلق عبر السهول ناحية الشمال .

ولم يكن في المقصورة عداها إلا أربعة أشخاص فرنسي يجلس قبالتها ، وله طابع الوسطاء المتجولين ، وراهبة منزوية في أحد الأركان وأصابعها تجري على مسبحتها ، وامرأتان مراكشيتان تقسماران في مرح وغبطة .

وحين تناولت هيلاري سيجارة من علبتها سارع الفرنسي يشعلها لها ، وكان ذلك بداية وصلت الحديث بينهما .

وقال لها الفرنسي فيما قال :

— ينبغي يا سيدتي أن توري الرباط . إنها رائعة ، وس الخطأ أن تفوتك مشاهدتها .

فقالت ،

— سأحاول ، وإن لم يكن في الوقت متسع .

ثم أردفت وقد لاحت على شفتيها ابتسامة خفيفة :

- وفضلاً عن هذا فإن نقودي وشيكاً على التنفيذ. إنك تعلم انهم لا يسمحون لنا بأن نأخذ معنا إلى الخارج إلا القليل .

فقال :

- ولكن ، هذا أمر سهل ، يا سيدي ، يمكنك تدبيره مع أي صديق لك هنا .

- أخشى اني لا أعرف أحداً في مراکش .

فقال في سماحة :

- في رحلتك التالية حسبك أن تبعثني إلى بكلمة صغيرة فأدبر لك الأمر ، وهاك بطاقتي .. إنني أسافر إلى إنجلترا كثيراً فيمكنك ان توفيني هناك ما أعطيه لك ..

- شكراً لك يا سيدي ، فإني أفكر فعلاً ، في ان أزور مراکش مرة أخرى .

- لا شك انك وجدت مراکش مختلفة تماماً عن إنجلترا فجوها كريه ، شديد البرودة مغلف بالضباب .

ثم استطرد :

- لقد تركت باريس منذ ثلاثة أسابيع ، وكانت هي الأخرى غارقة في الضباب والأمطار ، أما هنا فالشمس دائماً مشرقة رائعة .. وإن كان الجو بارداً إلى حد ما .. كيف كانت حالة الجو ، عندما غادرت إنجلترا ؟

فردت هيلاري :

- ضباب خائق .

- تماماً .. تماماً .. فهذا هو موسم الضباب . وكيف كانت حالة الثلج ؟

ألم يسقط عندكم هذا العام ؟

وتساءلت هيلاري في نفسها عما إذا كان هذا الفرنسي يتبع الأسلوب

الانجليزي التقليدي ، فيدور حديثه عن الجو ، أم انه يهدف إلى شيء آخر
حينما أشار إلى « الثلج » ، وهي نفس الكلمة التي رددتها اوليف بيمرتون قبيل
ان تلفظ أنفاسها الأخيرة ؟ . هل « الثلج » وقد رددتها مرتين كلمة عارضة ،
أم رمز خفي ؟ .

وتوقف بهم . القطار أخيراً في فزان وقد هبط الليل ، وبادر الفرنسي يحمل
عنها حقيبتها ، وسألها :

— أذهبة أنت يا سيدتي إلى فندق « قصر الجمال » ؟

فردت بنعم ، فاستطرد :

— إنه يبعد عن المدينة ثمانية كيلومترات .

فقالت في دهشة :

— ثمانية كيلومترات ؟ إذن فهو في ضواحي المدينة .

— إنه في الحي القديم ، أما أنا فسأنزل في أحد فنادق المدينة التجارية
الجديدة ، ولكن على من ينشد الراحة والهدوء والاستجمام ان يهرع الى « قصر
الجمال » . فقد كان هذا القصر مقاماً لإحدى الأسرات المراكشية النيلية ،
ثم تحول إلى فندق وهو يتميز بجذائقه الواسعة الرائعة كما انه مجاور للحي القديم
ذي الطابع الشرقي الخلاب .

ثم أردف :

— يبدو ان الفندق لم يوفد أحداً لاستقبالك ، فاسمحي لي ان أستدعي
لك تاكسياً .

— شكراً لك ياسيدي

وتحدث الفرنسي بالعربية مع أحد المحالين ، وشيعها حتى استقرت في
السبارة ، ثم قال لها :

— إن بطاقتي معك ياسيديتي ، فإذا احتجت شيئاً ، فلا تتردد في
الاتصال بي .. إني نازل في فندق « جراند أوتيل » ، ولن أسافر إلا بعد

أربعة أيام .

ورفع قبعته يحيطها ، وانطلق بها التاكسي .
وتناولت هيلاري بطاقة الفرنسي لتقرأ اسمه :
« هنري لورييه » .

وخرج بها التاكسي إلى ضواحي المدينة يشق الطرقات الريفية ، وحاولت هيلاري النظر من النافذة ، ولكن الظلام كان سائداً يحول دونها وان تقبين معالم الطريق . فيما عدا بعض أبنية متناثرة ، كان الضوء يشع منها .

وتراحت الخواطر في ذهنها وتدفتت وأخذت تسائل نفسها :
— ترى أمن هنا تبدأ رحلتها إلى المصير المجهول ؟ وهل مسيو هنري لورييه عميل سري من عملاء المنظمة ؟
وهل يكون هو الذي أغرى توماس بيترتون بأن يتخلى عن عمله ويهجّر زوجته ويرحل عن وطنه ؟ ثم إلى أين يمضي بها هذا التاكسي ؟
ولكن التاكسي ما لبث أن توقف بها امام فندق « قصر الجمال » فانتزعها من دوامة خواطرها المتضاربة الصاخبة .

نزلت من السيارة ودخلت الى الفندق تشق طريقها وسط جو شرقي أصيل فالثريات من النحاس المشغول ، والأرائك والوسائد بدلاً من المقاعد متناثرة بألوانها الزاهية البراقة ، والموائد في جميع الأركان وفوقها صواني القهوة والأقداح اما غرفتها فكانت مزودة بكل وسائل الراحة العصرية .
أبدلت هيلاري كرافن ثيابها ، ونزلت الى قاعة المائدة لتناول العشاء ، وكان الطعام شهيماً طيب المذاق .

ودارت ببصرها في أفحاء القاعة تستجلي وجوه الحاضرين ، وتنظر إلى الداخلين والخارجين .
واسترعى نظرها كهل ذو لحية صغيرة مدببة ، إذ كان الجرسونات ،

جميعاً ، يهرعون اليه مهرواين لأضال إيماءة يبدئها من رأسه او اصبعه او حتى من حاجبيه .

فأخذت تسائل نفسها عن يكون هذا الرجل ذو الشخصية المرموقة .

والى مائدة اخرى وسط القاعة كان يجلس رجل الماني ، كما كان هناك كهل تجالس فتاة على غاية من الجمال تراءى لهيلاري انها لا بد ان تكون سويدية او هولندية . كما كانت هناك اسرة انجليزية معها طفلان ، وكذلك تناثرت حول الطاولات الأخرى جماعة من الأمريكيين ، وثلاث من الأسرات الفرنسية .

وما ان فرغت هيلاري من العشاء حتى خرجت الى الشرفة لتناول القهوة . وكان الجو بارداً ، فسرعان ما لاذت بمخدعها .

وفي الصباح عادت الى الشرفة ، والشمس تغمر الأرض بالضوء واشعتها التي تبعث الدفء ، فاتخذت مكانها تحت مظلة تقيها الحرارة المتوهجة . وجاءت السويدية الشقراء فجلست الى احدى الطاولات واخذت تتشابه في ضجر وملل ، وقد زوت ما بين حاجبيها ، ثم اقبل رفيقها الكهل ، ونساءات هيلاري عما اذا كان زوجها او ابوها .

وحيته الفتاة في وجوم دون ان تبتسم ثم مالت اليه لتحديثه في عصبية ، وانكش الرجل وبدأ كمن يعتذر اليها .

ثم اقبل الرجل ذو اللحية المدببة ، واتخذ لنفسه مائدة في اقصى الشرفة ، وهرول اليه الجرسون يكاد يركض ، فتلقى اوامره ثم انصرف مسرعاً . ولمست السويدية الحسنة ذراع رفيقها ، واتجهت ببصرها ناحية الكهل الملتحي وغمغمت ببعض الكلمات .

وطلبت هيلاري كأساً من المارتيني وهمست تسأل الجرسون :

— من يكون هذا الرجل الجالس في اقصى الشرفة ؟

فأجاب الجرسون في زهو وخيلاء :

— إنه مسيو اريستيد .. انه ثري جداً . من كبار المليونيرات .
وتطلعت هيلاري الى الرجل . هذا المعجوز المنكشش في نفسه . هذا
المخلوق المفضن الوجه الذي يبدو اشبه بالمرجين ، الآن خزائنه عامرة بالمال
يولونه كل هذا الاهتمام .

ورفع الرجل رأسه ، وتلاقت نظراته بنظرات هيلاري برهة ، ثم ما لبث
ان اشاح عنها .

ونفضت السويدية الحساء ورفيقها ، ودخلا الى المائدة .
ثم رجع الجرسون يحمل كأس المارتيني ، وقال لها وهو امامها على
الطاولة .

— هذا الشخص الذي مضى الآن الى قاعة الطعام .. انه قطب من
الصناعة في العالم ، وهو غني جداً . والسيدة التي معه نجمة من نجوم
السينما .. ويقولون عنها انها « جريتا جاربو » اخرى . انها انيقة جداً ،
وجميلة جداً ، ولكنها دائماً تتشاحن معه . لا شيء يعجبها هنا . فقد
كرهت فزان حيث لا توجد محال وهي تريد منه ان يذهب بها غداً الى مكان
آخر يبعث على التسلية .

ثم اردف :

— حق الأثرياء لا يتمتعون بالراحة وهدوء الليل .

وعند هذه الكلمات استدار الجرسون وامرع منصرفاً ليملأ اشارة
لأحد النلاء .

وجاء الى الشرفة من البار شاب فرنسي وسيم ، فرمى هيلاري بنظرة طويلة
ذات مغزى خفي ، كأنما يقول لها :
ما الذي يدعوك الى البقاء هنا ؟
لم لا تتمشين قليلاً في الحديقة ؟

ثم هبط الدرج الى الحديقة وهو يتمم بمقطوعة من إحدى الأوبرات

الفرنسية منشداً :

« كانت زهور اللورييه صفوفاً طويلة ،

« منتشية تحلم احلاماً جميلة » .

فأيقظت كلماته في نفس هيلاري ذكرى بعيدة .. ذلك الفرنسي الذي التقت به في القطار وقدم اليها بطاقته اما كان يدعى « لورييه » ؟ وما هوذا هذا الفرنسي يردد نفس الكلمة :

« زهرة لورييه » ! ..

فهل ثمة ارتباط بين الأمرين ؟ ام مجرد مصادفة ؟

وفتحت حقيبتها وتناولت البطاقة ..

نعم انه يدعى « هنري لورييه » ، وعنوانه رقم ٣ شارع كرواسانت ، كازابلانكا .

وجعلت تقلب البطاقة بين يديها وهي سامة شاردة .

ثم فطننت الى آثار كتابة متخلفة على ظهر البطاقة ، بعد ان بحيث الكلمات .

ورفعت البطاقة الى عينيها في ضوء الشمس ، محاولة ان تتبين آثار اخرى مطموسة غير واضحة .

واخيراً كلمة : « دانتان » .

ومضت تتساءل عما اذا كانت هذه الكلمات ، تنطوي على معنى خفي ؟ .

ثم هزت كتفها يائسة ، ونفضت الفكرة من رأسها ، ودست البطاقة في حقيبتها .

وسقط ظل على وجهها ، فرفعت رأسها مجفلة .

كان مستر أريستيد منتصباً على كثب منها وبين الشمس ، فوق ظله على وجهها .

بيد انه لم يكن ينظر اليها ، وإنما كان ينظر إلى التلال البعيدة عبر الحديقة .

وسمعه يتنهد ، ثم يستدير فجأة متجهاً إلى قاعة الطعام ، فإذا بذراعه تصطدم بكأس المارتيني الموضوع على مائدتها فأطاح به إلى الأرض وتهشم .

وتحول اليها المليونير اليوتاني قائلاً بالفرنسية :
- آه . الف معذرة يا سيدتي .

فتبسمت هيلاري في وجهه ، وأكدت له أن الأمر ليس بذى أهمية .
وتلبية لفرقة خفيفة من إصبعيه جاء الجرسون مهرولاً ، فأمره بأن يجلب للسيدة كأساً آخر ، ثم كرر اعتذاره ، ومضى إلى قاعة الطعام .

وعاد الشاب الفرنسي من الحديقة ، وهو ما يزال يترنم مغنياً ، وحين مر بجانب هيلاري تريت في مشيته عامداً .
وإذا رآها لا تشجعه ، ولا تلقى إليه بالاً ، هز كتفيه متفلسفاً وقابع طريقه .

وحمل اليها الجرسون شرايبها فسألته هيلاري :
- هل ينزل مستر أرسنيد في الفندق وحده أم معه حاشيته ؟
- إن الأثرياء من أمثاله لا يسافرون وحدهم أبداً . إن معه وصيفه وسائق سيارته واثنان من السكرتارية .

وحين ذهبت هيلاري إلى قاعة الطعام رأيت اليوتاني منفرداً إلى إحدى الموائد ، كما كان شأنه في الليلة السابقة ، وإلى مائدة قريبة كان يجلس شابان رجح لديها انهما السكرتير إذ كانا لا يفتان ينظران إلى المائدة التي يجلس اليها مستر أرسنيد .

وانقضت الظهيرة في سلام وهدوء ، وطاب لهيلاري ان تمضي معظم الوقت

في الحديقة غارقة بأحلامها وخوابرها ، ناعمة بالجو الشدي والنسيمات العطرة التي تنساب حولها .

وأشرفت الشمس على المغيب ، وهبت نسيمات باردة ارتعدت لها هيلاري ، فزابت الحديقة إلى قاعة الجلوس ، فإذا بها تلتقي وجهها لوجه بمسز كاليفين بيكر .

فقلت لها الأمريكية

— قد وصلت لتوي بالطائرة من كازابلانكا ، فإني لا أطيق القطارات باهتزازها وتأرجعها فوق القضبان .

ولم تدع هيلاري فرصة للحديث ، وإنما استطردت ، على الفور ، تقول :

— وكيف حالك الآن ؟ لا بد أنك زرت المدينة القديمة اليوم ؟

فأجابت :

— الحق إني أمضيت نهاري أستمع بالشمس .

— آه .. فقد نسيت إنك خارجة لتوك من المستشفى ، فلا بد بعد الارتجاج من الراحة والانسجام ، وإن ترقدي في غرفة معتمة معظم ساعات النهار ، ورويداً رويداً يمكن أن تعتادي على المشي والتجول ، وعندئذ سأدعوك إلى أن تصحبيني في بعض الرحلات ، لأنني أحب جعل أيامي حافلة زاخرة بالنشاط رغم ما بلغت من العمر .

فهنأتها هيلاري بوفرة حيويتها ونشاطها .

واستطردت مسز بيكر :

— أتذكرين السيدة التي عرفتكم بها في كازابلانكا ؟ مس هيدرنجتون ؟ إنها قادمة اليوم بالقطار إذ تؤثره على الطائرة .

واستمرت تقول مندفعة كالسيل الجارف :

— لقد حجزوا لي غرفة لا تروقني ، ولكنهم وعدوا بتغييرها ، وسأذهب

اليهم الآن لأرى ما اتخذوا في هذا الشأن .
وانصرفت على الفور تمشي في نشاط لا يتفق وسنها .
وعندما نزلت هيلاري إلى قاعة الطعام مساء ذلك اليوم ، كانت مس
هيدر فجتون هي أول شخص وقع عليه بصرها .
وبعد العشاء شربت السيدات الثلاث القهوة معاً ، وتبادلن ملاحظات
عابرة عن نزلاء الفندق ، الذين كانوا متناثرين حول الطاولات يتناولون
العشاء .

الفصل السابع

مضت هيلاري الى مكتب الاستعلامات بالفندق ، تخطرهم بعزمها على زيارة الحي الشرقي فزودوها بدليل يصحبها اليه .
ومضى الدليل تصحبه هيلاري يحتازان حديقة الفندق الشاسعة الأرجاء حتى إذا انتهيا إلى طرفها القصي ؛ أخرج الدليل من جيبه مفتاحاً كبير الحجم ، وفتح به باباً تكاد تحجبه الأشجار عن النظر ، ودلف منه تتبعه هيلاري .

وتسمرت هيلاري مكانها في عجب ودهشة !
فقد الفت نفسها في دنيا غير تلك الدنيا التي كانت تعيش فيها منذ لحظات .

إذن فهذا هو الحي الشرقي الشهير !

شوارع ضيقة ملتوية لا تكاد تتسع لاثنين يسيران جنباً لجنب ،
وبيوت منخفضة متلاصقة لو أن الأذرع ارتفعت لطاولت سقوفها ، وأناس يروحون ويغدون في عباداتهم الوسيعة الفضفاضة أما الحوانيت فتكدست فيها السلع والمتحف الشرقية الجميلة المصنوعة من الجلد المزركش أو النحاس المشغول .

وفتنها المشهد وسحرها ، ولولا هذا الدليل الذي كان لا ينفك يثرثر

في أذنها من لحظة لأخرى :

— أنظري لهذا يا سيدتي .. تأملي ذلك .. هل يعجبك هذا ؟
كأنما ليس لها عينان ترى بها .

وأخيراً قال لها الدليل بعد أن امتدت بهما الجولة وطالت :

— والآن سأذهب بك يا سيدتي إلى مشرب للشاي حيث تتناولين الشاي
المغربي الشهير بمذاقه اللذيذ .

ومضى بها إلى مشرب يقع على سفح أحد التلال .

فألفت نفسها داخل مبنى شرقي الطراز ، تناثرت فيه على أرض القاعة
وسائد من الجلد المزركش ، وآرائك مكسوة بقماش منقوش ، زاهي
اللون . وقدم اليها الشاي المخلوط بالنعناع في كوب زجاجية صغيرة الحجم ،
وكان عليها ان تشرب مثنى وثلاث ورباع .

وقال لها الدليل :

— رالآن سأخذك في السيارة إلى الضاحية لتري مشهد الطبيعة في بلادنا ،
وهو مشهد ساحر خلاب .

ثم أردف :

— ولكن هذه الجرسونة ستذهب بك أولاً إلى الحمام ، إذ لا شك انك
تريدن ان تغتسلي .

وتدخلت الجرسونة في الحديث قائلة بابتسامة لطيفة .

— ان لدينا في فزان يا سيدتي حمامات رائعة لا تقل جمالاً عما رأيت في
لندن أو باريس أو شيكاغو .

ونهضت هيلاري عن الوسادة التي كانت متربعة فوقها ، ومضت في أعقاب
الجرسونة .

كان الحمام فعلاً على غاية من الأناقة والنظافة ، وكان مزوداً بالماء الساخن
والبارد . وفرغت هيلاري من تجميل نفسها وهمت بالخروج ، ولكنهما حين

أدارت مقبض الباب استعصى وأبى أن ينفتح .
 عقدت هيلاري ما بين حاجبيها دهشة وغضباً ، إذ ما معنى أن تحبس في
 الحمام ؟ ومن يكون ذلك الذي أوصد عليها الباب من الخارج ؟
 وهمت بأن تقرع الباب لولا أن فطنت إلى باب آخر يقوم في الجدار المقابل
 فسارت إليه وأدارت مقبضه فانفتح على الفور .
 وجدت نفسها في غرفة صغيرة شرقية الطراز معتمة الضوء . وحين الفت
 عيناها الرؤية ، وأدارت بصرها في أنحاء المكان ، إذ بها تراه جالساً هناك على
 أريكة يدخن سيجارته في هدوء .
 ذلك الفرنسي الذي التقت به في القطار .. مسيو هنري لورييه .

* * *

لم ينهض الفرنسي ليحييها ، وإنما لزم مكانه واكتفى بأن يقول لها :
 -- طاب يومك يا مسز بيترتون .
 ولبثت مكانها برهة جامدة بلا حراك ، وطففت عليها دهشة لجت
 لسانها وشلت تفكيرها .
 ثم بدأت تستعيد رباطة جأشها .
 إذن فقد بدأت الرحلة الحقيقية . إذن فهذه هي المغامرة التي كانت
 تترقبها .. إن عليها أن تتصرف طبقاً لما كان مفروضاً أن يصدر عنها « هي » ،
 عن مسز بيترتون الحقيقية .
 إن عليها أن تحسن أداء دورها ، وإلا أردت بنفسها إلى التهلكة .
 قالت وقد تماكنت وسيطرت على أعصابها :
 - ألدبك أنباء لي ؟ أيمكنك أن تساعدني ؟

فأوماً إيجاباً ثم أردف بنبرة لوم وعتب :
 - ما بالك كنت في القطار متحفظة حذرة مع انني ظللت طوال الوقت
 أحدثك عن الجو ؟

الجو ؟ ترى ما الذي قاله مسيو لورييه عن الجو ؟ نعم ، فقد تكلم عن
 البرد .. وعن الضباب .. وعن الثلج . آه ، عن الثلج !
 « الثلج » ! . نفس الشيء الذي تحدثت عنه أوليف بيترتون وهي تحتضر
 وتلفظ نفسها الأخير .

وذكرت على الفور أغنية الطفولة التي رددتها عندئذ وبادرت على الفور
 تكرر نفس المقطوعة :

« الثلج ، الثلج ، الثلج الجميل » .
 « تدوسين على قطعة منه ، وتنزلقين .. »
 « ثم تذهبين . تذهبين .. » .

وقال لورييه :
 - تماماً .. إنها كلمة السر المتفق عليها ، فلماذا لم تستجبي إذ ذاك وتردديها
 على الفور كما أمرت .

وقالت هيلاري :
 - أغاب عنك اني كنت مريضة ؟ . فقد كنت في الطائرة التي سقطت
 وأصبت بارتجاج في المخ أثر على ذاكرتي إلى حد ما . إنني لا زلت أذكر الماضي
 بدقائه وتفصيله ، ولكنني في بعض الأحيان أشعر بفراغ وينمعي كل شيء
 من ذهني .

فقال لورييه مؤمناً :
 - إنني أستطيع ان أدرك هذا . ولكن المشكلة هي هل أنت في حالة
 يمكنك معها أن تواصل الرحلة ؟
 فردت في حماس :

- طبعاً سأواصل الرحلة إن زوجي ..
فقاطعها :
- إن زوجك على ما فهمت بانتظارك في لفة وشوق .
فتبسم في وجهها ، بيد ان ابتسامته كانت متسمة في ثناياها بقسوة
واضحة ، فسألها :
- أعتقد أن السلطات الانجليزية اقتنعت بأجاباتك عندما استجوبتك ؟
– وأني لي أن أعلم ؟ ولكن يبدو أنهم كانوا راضين .
ثم أردفت :
- ولكنني أعتقد أنهم وضعوني تحت المراقبة منذ غادرت البلاد . إني طبعاً
لم أفطن إلى ان هناك من يتتبعني لكن لدي إحساساً داخلياً بهذا .
فقال لورييه ببرود :
- هذا شيء طبيعي توقعناه وأدخلناه في حسابنا .. نحن لسنا بالأطفال
البلهاء يا مسز بيترتون . إنك كنت تحت المراقبة ، منذ اللحظة التي
اختفى فيها زوجك ، ومع ذلك استطعنا أن نبلغك رسالتنا ،
اليس كذلك ؟
فقالت مؤمنة ،
– طبعاً .. طبعاً .
- والآن سأزودك بملفاتنا الجديدة .. بعد غد تسافرين لمراكش طبعاً
لجدول الحجز السابق . وفي مراكش ستلقين برقية من إنجلترا تحملك على ان
تتخذي على الفور الاجراءات اللازمة للعودة .
فقالت باستغراب :
- هل سأعود لإنجلترا ؟
فرد بحفوة :
- أنصتي إلي ولا تقاطعيني .. ستعجزين لك مكاناً في الطائرة التي ستغادر

كازابلانكا في اليوم التالي .

— وهب ان المقاعد كلها كانت مشغولة ؟ .

— ان تكون كلها مشغولة .. ستجدين مقعداً شاغراً في انتظارك .. فقد اتخذنا المدة لكل شيء .

ثم أردف :

— والآن هل وعيت العمليات تماماً ؟

— وعيتها تماماً .

— إذن عودي إلى الدليل فقد طال انتظاره .. وهذه المناسبة فقد تعرفت إلى سيدتين في « قصر الجمال » إحداهما أمريكية والأخرى إنجليزية ، اليس كذلك ؟

فردت في نبرة من الوجمل :

— نعم . فهل أخطأت بهذا ؟ فقد فرضت الأمريكية نفسها علي ، ثم عرفتني بزميلتها .. إني آسفة .

— هوني عليك ، فهذا التعارف يلائم خطتي .

ثم أردف :

— يحسن بك ان تحاولي إقناع إحداهما بمرافقتك في رحلتك لمراكش .

— سأحاول يا سيدي وإن كنت لا أدري ان كانت ستقبل أم لا .

— إذن الى اللقاء . طاب يومك .

فرجعت هيلاري الى الحمام ، ومن الغريب ان الباب المفضي الى المشرب استجاب لها حين أدارت مقبضه .

قالت مس هيذر نجتون تخاطب هيلاري كرافن :

— اذن فأنت مسافرة غداً لمراكش ؟ . ولكنك لم تقيمي في فزان سوى

فترة وجيزة .

-- قد استمتعت منها بما يكفي .

ثم أردفت :

— ولعلي أستطيع ان أغري أيكما بمصاحبتى فى رحلتى لمراكش فقد سعدت بالتعرف بكما ، وسفر المرء وحيداً يبعث على الضجر .

فردت مس هيدر نجتون :

— أرجو ان تعفينى من هذه الرحلة فقد زرت مراكش من قبل .

— لقد كنت فى مراكش منذ شهر ، ولكن لم لا أزورها مرة أخرى ؟ انى ولوعة بالرحلات . والمرء حين يزور بلداً للمرة الثانية فإنه يستشف منها ما لم يظن اليه أول مرة .. انى ذاهبة من فوري لأحجز تذكرة للسفر .

* * *

خلت هيلارى كرافن بنفسها، وانهاالت على ذهنها الخواطر صاخبة متضاربة كأنها دوامة فى لجة من الماء .

وانتزعت نفسها من خواطرها حين سمعت بغتة يجانبها صوتاً يقول :

— أسمعك لى يا سيدتى ان أجالسك برهة ؟

وكان المتحدث هو ذلك المليونير اليونانى ذو اللحية المدببة : مسيو أريستيد وسحب مقعداً وجلس بجانبها ، وقدم اليها سيجارة ، وأشعل لنفسه أخرى .

— ترى هل أعجبتك هذه المدينة يا سيدتى ؟

— لا أدري لاني لم أقض فيها الا برهة وجيزة .

— هل زرت الحى الشرقى ؟

— انه رائع خلاب .

صدقته .. انه رائع حقاً . انه موطن « الماضى » .. الماضى بدساتسه

وممساته الخافتة وغموضه السحري وعواطفه الجياشة الفاترة !.

ثم أردف :

- أتعرفين يا سيدتي ما يطوف بذهني حين أجوس خلال شوارع فزارت الضيقة المتعرجة ؟ اني عندئذ أذكر شوارع لندن المتسعة المكشوفة . هناك كل شيء واضح صريح ، أما هنا فالغموض هو السائد والستائر تخفي كل ما يجري وراءها .

ثم أردف :

- أتعلمين يا سيدتي اني أحسدك على التجربة التي مررت بها بمحادث سقوط الطائرة ؟. فقد تمنيت لو اني كنت مكانك !. انها لمغامرة رائعة أن يرى المرء الموت ، ثم اذا به يرتد الى الحياة !.. ذلك شيء ينقي الروح ويطهرها !.

وكما جاء فجأة انصرف فجأة ، وهيلاري تتابعه بنظرة تفيض بالدهشة والاستغراب .

الفصل الثامن

في قاعة الانتظار بالمطار كانت هيلاري كرافن تترقب قيام الطائرة ، والى جانبها مسز بيكر تصب في أذنيها ثروتها التي لا تنتهي ، وتجيب في سرود على الأسئلة التي توجه اليها .

ولكن سيل الحديث المتدفق ما لبث ان اتخذ مجرى آخر فقد التفتت مسز بيكر الى شابين كانا يجلسان عن كئيب أحدهما امريكي يتألق وجهه دائماً بابتسامة عريضة مشرقة والآخر فيما يبدو هولندي أو نرويجي السحنة ، واكثر جداً ووقاراً من صاحبه .

وقالت مسز بيكر مخاطبة الأمريكي :

— اني أحب ان أعرفك بصديقي ، مسز بيترتون ، يا مستر ..
يا مستر ..

— اندرو بيترز .. واصدقائي بنادوني باسم آندي .

فنهض الآخر ووقف وانحنى باحترام وقدم نفسه بقوله :

— تور كيل ايريكسون .

وقالت مسز بيكر :

— والان وقد تعارفنا .. هل نحن جميعاً ذاهبون لمراكش ؟ هي أول زيارة لصديقي لهذه المدينة .

فقال النرويجي ايريكسون :

— وهي اول زيارة لي ايضاً .

فقال بيترز :

— وهذا ينطبق علي .

وعلا صوت الميكروفون بكلمات متداخلة غير واضحة فهموا منها ان موعد قيام طائرتهم قد حان .

وبخلاف هؤلاء الأربعة ضمت الطائرة شخصين آخرين رجلاً فرنسياً وراهبة صارمة القسمة جامدة الوجه .

واستندت هيلاري رأسها الى ظهر المقعد .

فأطبقت عينيها ، وران عليها النعاس .

وما لبثت ان استغرقت في النوم .

صحت هيلاري فجأة من النوم ، ولاحظت ان الطائرة تنحدر الى الأرض منخفضة من سرعتها .

ومالت الى النافذة ، تطل من ورائها ، بيد انها لم تر أمراً لأي مطار .

وتشاءب الفرنسي وقال :

— يبدو اننا سنهبط ، ولكن لماذا ؟

فردت هيلاري :

— فعلاً ، فقد أخذت الطائرة بالهبوط .

ودارت الطائرة حول نفسها عدة دورات ، وتوقفت محركاتها ، وسكن الهدير .

ترى هل أصابها خلل ما ؟

أم أن الوقود نفذ منها ؟

فارتطمت العجلات بالأرض ، وجرت فوقها وهي تهتز وتتأرجح فوق

المطبات غير المستوية .

وجاء الطيار من مقصورته يقول لهم :

— أرجوكم جميعاً أن تتفضلوا بالنزول .

وغادروا الطائرة تبعاً واحداً تلو الآخر .

لم يكن مطاراً ذلك الذي هبطوا فيه ، وإنما كان بقعة منعزلة في قلب الصحراء الممتدة بلا حدود .

وقالت هيلاري متسائلة في صوت تغشاه الحيرة :

— ولكن ما الذي جرى ؟ لماذا نزلنا هنا ؟

وقال الطيار مجيباً :

— إننا على كل حال لن نبقى إلا دقائق قليلة .

ورمى بصره عبر الأفق ناحية الجبال المكسوة بالثلوج .

ثم قال :

— لقد تأخرت قليلاً ، ولكن ها هي ذي قادمة على البعد .

وقال المسافر الفرنسي :

— قد فهمت أنه ستكون في انتظارنا سيارة ميكروباس لكي نكمل

الرحلة فيها .

وعادت هيلاري تتساءل :

— هل أصاب المحرك عطب ؟

وابتسم بيترز إبتسامته العريضة المألوفة ، التي تشيع في كل ثنايا

وجهه وقال :

— كلا .. إن المحرك سليم ، ولكن كان لا بد أن يدبروا شيئاً من

هذا القبيل .

وأخيراً جاءت السيارة الميكروباس ، يقودها سائق من البربر ، في

سرعة خاطفة اضطر معها أن يضبط فراملها بكل قوة حتى توقفت بجوارهم

في المكان المناسب .

ولدهشة هيلاري سمعت مسز بيكر تصدر أمراً بقولها :
— هيا أسرعوا فلا نريد ان نتأخر أكثر من هذا .

ومضى السائق إلى الجزء الخلفي من السيارة وفتح الباب فانكشف عن صندوق ضخّم يشغل المؤخرة .

وتعاون بيترز وإريكسون مع السائق والطيار على إنزال الصندوق إلى الأرض في جهد ومشقة إذ بدا ثقيلاً مرهقاً .

فأقبل الفرنسي على الصندوق يفتحه ويرفع غطاءه ، فاقتربت منه هيلاري محاولة النظر لما بداخله .

فأخذت مسز بيكر بذراعها تنهيمها جانباً وهي تقول :

— لو اني مكانك لما حاولت النظر الى ما في الصندوق .

فقالت هيلاري بمعجب مستغربة :

— ولم لا ؟ ما الذي في الصندوق ؟

وتأملت ابتسامة بيترز العريضة وقال :

— إني أعرف ما فيه .. إن فيه مجموعة من الجثث ؟

ورددت هيلاري في ذهول :

— جثث ؟

— نعم جثث .. جثث اشتريت بطريقة قانونية سليمة لإجراء بحوث طبية

عليها ، والذي اشتراها هو الدكتور بارون .

وأشار إلى الرجل الفرنسي .

ثم استطرد :

— هنا تنتهي رحلتنا ، يا مسز بيترتون .. أعني المرحلة الأولى من

الرحلة ..

ستوضع الجثث في الطائرة ثم تشتعل فيها النيران ، وسوف نراها على البعد

ونحن نستقل الميكروباس شعة متأججة ..

ونغممت هيلاري :

— ولكن لماذا؟ لماذا؟

وكان الدكتور بارون هو الذي أجاب .

فقال :

— ولكنك تعرفين ، طبعاً ، إلى أي مكان سوف نذهب ، إننا ذاهبون

للمصير المجهول .

الفصل التاسع

- والآن أرجو ان تستقلوا الميكروباص ، وان تسرعوا فقد تأخرنا عن الموعد المحدد .

وصعدوا إلى الميكروباص ، والتفتت هيلاري إلى السيدة الأمريكية وقد بدأت تدرك حقيقة الوضع وسألتها :

- إذن فأنت ما يسمونه بضابطة الاتصال ؟

فأجابتها مسز بيكر :

- تماماً .. اني ضابطة الاتصال التي تتولى العلاقات العامة ، فليس ما يثير الشك رؤية سيدة امريكية تنتقل بين مختلف البلاد وتحدث الى هذا وذاك ، فتلك طبيعة الأمريكيين .

واستطردت مسز بيكر:

- وسوف يكون خبراً مثيراً ان يقرأ الناس في الصحف ان الطائرة سقطت بمسز بيكرتون للمرة الثانية ، وان كانت هذه المرة قد احترقت مع سائر الركاب ، ولم يعثر في الحطام الا على جثث شوهتها النيران واختفت معالمها المميزة .

وأطلقت مسز بيكر ضحكة مرحة ، فأدركت هيلاري مدى دهاء الخطة المدبرة وبراعتها . فقالت :

— وهؤلاء الآخرون ؟ ما شأنهم ؟

فردت مسز بيكر :

— الدكتور بارون من أشهر علماء الجراثيم ، ومسترايريكسون من أفاض علماء الطبيعة ، أما مستر بيترز فباحث كيمائي شهير . ومس فيدهام ليست راهبة طبياً ، وإنما هي أخصائية في الغدد . أما أنا فلا أنتمي الى البيئة العلمية وإنما مجرد ضابطة اتصال .

وقساءلت هيلاري :

— ومس هيدر فجتون ؟ ما شأنها ؟

— شأنها فيما أعتقد هو مراقبتك وتتبع خطواتك مذ حلت بكازابلانكا وكذلك التأكد من ان أحداً لا يقتفي أثرك ، وان كنت في حقيقة الأمر لا اعرف شيئاً عنها فربما كانت غير منتحبة اليها .

وهتفت مسز بيكر :

— آه .. أنظري ! ها هي ذي تشتعل .

ومالت هيلاري الى النافذة تنظر منها فرأت على البعد شعة تتأرجح من النيران ، وسمعت دوي انفجار خافت .

ورمى بيترز برأسه الى الوراء وقال وهو يضحك :

— غداً تنشر الصحف بالخط العريض : ستة أشخاص يلقون حتفهم عندما هوت بهم الطائرة وهم في طريقهم الى مراكش ! .

ولن ينظر لهم بهال ابدأ ان هؤلاء الأشخاص الستة كانوا من قبل جيشاً هامدة شبت موتاً .

ومست هيلاري :

— هذا مخيف ! مخيف جداً !

— أتمنين الانطلاق للمصير المجهول ؟

كان بيترز هو الذي تكلم ، وكان الآن يبدو جاداً تبددت من سماته امارات

المرح التي كانت تغشاه .

واستطرد :

— هذا صحيح ، ولكنه الطريق الوحيد ، اننا الآن نطرح « الماضي »
ورادنا ، ونخطو الى « المستقبل » .

واضاء وجهه بأشراقه من الحماس والانفعال وقال :

— الآن ، نهجر خلفنا الأثوار والمجانين .. الحكومات الفاسدة
وتجار الحروب . سنذهب الى الدنيا الجديدة ، دنيا العلم ، بعيدين عن الخثالة
والقاذورات .

وزفرت هيلاري نفساً عميقاً ، وقالت عن عمد :

— قولك هذا شبيه بما كان يردده زوجي دائماً .

فقال :

— زوجك ؟ . أتعنين توماس بيترتون ؟ . إنني لم أعرف عليه أبداً في
الولايات المتحدة ، وإن كانت بعض المؤتمرات قد ضمتنا أكثر من مرة ..
إن جهاز تفتيت الذرة الذي وفق اليه من أعظم الاختراعات في العصر
الحديث ، وإني لأجمله وأقدره من أجل هذا .. إنه كان يعمل مساعداً لبروفسور
مانهايم ، اليس كذلك ؟

فأرمات هيلاري إيجاباً ، فاستطرد بيترز :

— قد قيل لي انه تزوج ابنة مانهايم ، ولكنك طبعاً لست ..

فقاطعته :

— إني زوجته الثانية ، فقد ماتت الزا في أمريكا .

— آه .. آه .. إنني أذكر هذا الآن .. وبعد وفاتها سافر بيترتون ل إنجلترا

ليعمل هناك ، ثم أذهل العالم بأن اختفى فجأة .

وضحك بيترز واستطرد :

— ثلاثي فجأة وهو يحضر أحد المؤتمرات في باريس وابتلعه « المجهول » .

وكان هذا هو الذي يشير الفزع في قلب هيلاري : إن المنظمة تجيد تدبير الخطط .

جميع تدابير الأمن التي اتخذت لحمايتها .. جميع التدابير التي وضعت لتتبع خطواتها ، كل هذا قد انهار وذهب هباء ، فلا أحد الآن يعرف مكانها .. غداً سيقال ان مسز بيترتون لقيت حتفها عندما سقطت بها الطائرة للمرة الثانية ، ولن يخطر ببال أحد انها الآن في قلب الصحراء منطلقة إلى « المصير المجهول » ، حيث سبقها اليه توماس بيترتون من قبل .. فقد اختفت آثارها ، ولم يمد باقياً إلا طائرة محترقة ورماد ست من الجثث .

ترى هل يستطيع جيسوب ان يعرف انها هي .

هيلاري كرافن ، لا تزال على قيد الحياة ، وان جثتها ليست بين هذه الجثث المحترقة ؟ أغلب الظن انه لن يعرف أبداً ، فقد دبرت الخدعة بدهاء منقطع النظير .

إنهم الآن ستة أشخاص ، في سيارة ميكروباس ، في قلب الصحراء فكيف يمكن أن تختفي آثارها بمثل هذه السهولة ؟

ألا يحتمل أن يرى السيارة أي إنسان ؟ هل قضي عليهم بأن تنقطع صلتهم إلى الأبد بعالم البشر ؟ إن هذا يبدو مستحيلاً .. رغم براعة الخطة المدبرة ودهائها .

ومست هيلاري :

– لكن إلى أين نحن ذاهبون

فردت مسز بيكر :

– مهلاً ولا تتمجلي !. سوف تعرفين كل شيء في الوقت المناسب .

وقامت السيارة مسيرتها بلا هوادة ، وهيلاري لائذة بالصمت ، تضرب في متاهات الخيال والوساوس

ومال رأسها فوق صدرها ، وما لبثت أن أخذتها غفوة من النوم

* * *

في رفق لمس بيلتز ذراعها وهو يقول :

— إستيقظي إذ يبدو أننا بلغنا مكاناً ما .

وهبطوا جميعاً من السيارة ، وكانت الليل قد أرخت سدرله واشتد
الظلام . وعلى ضوء أحد المشاعل ساروا إلى بيت ريفي تحف به أشجار
النخيل الباسقة ، وعند بابه امرأتان من البربر تتسامران بالضحك .

واقترنت النساء الثلاث ، هيلاري ومسر بيكر والراهبة ، إلى غرفة فيها
ثلاث مراتب وبعض الأغطية ، ولا شيء غير ذلك من الأثاث .
وقالت مسر بيكر كالفن :

— وددت لو اني الآن في فندق « قصر الجمال » أنعم بالراحة على فراش
وثير ، فقد حطمت السيارة أضلعي

فردت عليها الراهبة في صوت جاف به مسحة من الاسترجال :

— الراحة ذقمة تخلق الضعف والمذلة والهران .

فتطلعت اليها مسر بيكر تتأملها ثم قالت :

— إني أستطيع أن أتخيلك مس فيدلهايم جاثية على الأرض فوق الحصى
والأحجار تبتهملين وتصلين دون أن يداخلك بالتعب أو الانهاك .

ثم التفتت إلى مسر بيلترتون قائلة :

— بعد ان نتمشى سأتيك بقرص من الأسبرين فلتستغرقين في النوم بعد

مشقة هذه الرحلة المضنية .

وجيء اليهن بالطعام والشاي المعطر بالنعناع ، وما ان أقين عليه متمجلات

حقى هرعن الى مراقدهن وغرقن في نوم عميق .
وقالت مسز بيكر لصاحبتها في الصباح ان الرحلة لن تعاود مسيرتها إلا
عند هبوط المساء .

وجاءت اليهن الخادمتان بشباب وطنية فقالت مسز بيكر :
- منذ اللحظة سنرتدي الزي الوطني المراكشي ونخلع الثياب الأوربية .
فأضمت النساء الثلاث نهارهن بين الفراش وبين الجلوس في سطح البيت
يشرفن على مشاهدة الطبيعة التي تدور حولهن ، وعلى قرية ريفية تظهر لهن
على البعد .

وأخيراً حانت ساعة الرحيل ، وقد توارت الشمس وراء الأفق . وفي
هذه المرة لم يستقلوا السيارة الميكروباس المقفلة ، وإنما انحشروا في سيارة
سياحية مكشوفة ، وكانت النساء يرتدين الزي الوطني المراكشي ، وعلى
وجوههن نقاب مسدل . أما الرجال ، فلبسوا الجلابيب والعباءات
الفضفاضة .

وتتابعت ساعات الليل والسيارة تمرق بهم عبر الصحراء الممتدة ،
وهم صامتون يداعب النوم أجفانهم ، والمقاعد غير المريحة تقض أجسادهم
المرهقة .

وقال آندي وقد تبدد الليل وبزغت الشمس ، وتوقفت بهم السيارة ونزلوا
منها لتناول طعام الفطور :

- كيف حالك يا مسز بيترتون ؟ فقد كانت ليلة مضية ؟

- طول الليل والأحلام المزعجة تراودني .

ثم أردفت متسائلة :

- أين نحن الآن يا ترى ؟

- من يدري ؟ فهي مجرد صحراء لا أول لها ولا آخر وهذا ما يلائم الخطة

المديرة حق لا نخلف وراءنا أثراً يهتدى به البنا

فأطلق ضحكته المرحمة الممودة واستطرد :
- أولاً طائفة تنفجر ويحترق ركابها جميعاً .. وثانياً سيارة ميكروباس
عليها لوحة تشير الى أنها تابعة لبعثة هندسية تمسح الأرض .. وفي اليوم التالي
سيارة سياحية تستقلها جماعة من البربر ، وهو شأن شائع في مثل هذه المناطق
أما المرحلة التالية من الرحلة فهي ما لا علم لنا به .

فتساءلت هيلاري :
- لكن ما هي وجهتنا ؟
فهز آندي كتفيه ورد :
- لا جدوى من السؤال ، فذلك دائماً أسئلة لا جواب عليها .

الفصل العاشر

استمرت الرحلة الفامضة أياماً أخرى .
كانت هيلاري نعيش معهم وتؤاكلهم ، وتحدثهم وتخطبهم ، ومع ذلك
فقد ظلت طوال الوقت تحس انها بعيدة عنهم ، لا تشاركهم آراءهم ومعتقداتهم
كأنما بينهم وبينها سد هائل .

فهذا هو الدكتور بارون لا ينمى إلا شيئاً واحداً ، هو أن يحصل على
النقود فيفرق نفسه في معمله بين أجهزته وأقاييب الاختبار . وكان من حين
لآخر يحدثها عن قوة التدمير المروعة التي يمكن أن تحتوي عليها أنبوبة في
حجم قبضة اليد . وسأله :

– ولكن أيمكنك حقاً استعمالها ؟

فنظر اليها بانفعال جنوني وقال :

– ولم لا ؟ ما دام الأمر ضرورياً .

وسرى الرعب بأوصالها ، وهز أحقادها هزاً عنيفاً ، وداخلها شعور
بالخوف منه .. ومن الآخرين .

ها هوذا رجل يتحدث بمنتهى الاستغفاف عن إبادة الملايين من البشر ،
دون أن تهتز شعرة في رأسه .

وكذلك كانت هيلاري تكره تلك السيدة المتعجرفة المستعينة هيلدا

نيد هام . ولكنهما كانت تميل إلى آندي بيترز وإن أفزعها منه ذلك الوميض المتألق الذي كان يغشى عينيه من حين لآخر .
قالت له يوماً :

– انك لا تريد خلق دنيا جديدة، لأن الذي يسمدك هو تدمير هذه الدنيا التي نعيش فيها .
فقال مستنكراً :
– ماذا تقولين يا أوليف ؟

– إن الأمر واضح واست مخطئة . إنني أكاد ألمس الحق الذي يتأجج به صدرك . الحق .. الكراهية ، الرغبة في التدمير ، هذا هو ما يحيش به صدرك .

أما نظرة هيلاري لايريكسون فكانت مختلفة .. فهو رجل حالم .. رجل مثالي متعلق بالأوهام .
كان دائماً يردد :

– نحن معشر العلماء يجب أن نسود العالم .. نحن الذين يجب أن نحكم ونسيطر . مقاعد الحكم لم تخلق إلا للعباقرة .

وهكذا كانوا جماعة واحدة ، يضمهم مكان واحد ، ولكن معتقداتهم ونوازعهم كانت متنافرة متناقضة ، بيد أنه كان يجمعهم هدف مشترك : ذلك أنهم كانوا جميعاً يتطلعون إلى وهم وسراب .

وفي نهاية اليوم الثالث هبطوا قرية صغيرة ، ونزلوا في خان وطني متواضع وطلبت اليهم مسز بيكر أن يخلعوا الزي المراكشي وأن يعودوا إلى ثيابهم الأوربية .
وقالت لهم :

– وأرجو أن تسرعوا لأن الطائره تفتظرن .
فقالت هيلاري باستغراب .

– الطائرة ؟

– نعم . فحسبنا هذه السيارة التي قضت منا الأضلع .
واستقلوا الطائره ، وكان القائد فرنسي الجنسية بارعاً بمهنته . وطاروا
بضع ساعات ، فمرت بهم الطائرة بأمان من وسط الجبال الشاهقة .

وبعد ظهر اليوم التالي أخذت الطائره تهبط الى الأرض ، حتى استقرت
عجلاتها على سهل تحف به الجبال ، في مطار بدائي ، يقوم عند طرفه
القصي بناء أبيض .

فمشت بهم مسز بيكر الى البناء وهي تقول أمره :

– عليكم ان تغتسلوا وتناولوا القهوة قبل ان تستقلوا السيارات .

واغتسلوا ومشطوا شعورهم ، وجاءهم الخدم العرب بالقهوة والسندويشات
وتأهبوا لمواصلة السفر .

فقالت لهم مسز بيكر وهي تنظر في ساعتها :

– لقد آن لي ان أترككم ايها الصحاب فتلك هي المرحلة الأخيرة من الرحلة .

فسألنها هيلاري :

– أراجعة انت لمراكش ؟

– وكيف أرجع اليها والمفروض اني مية احترقت بي الطائرة التي سقطت ؟

ان ورائي مهام أخرى في بلاد ثانية .

فقالت هيلاري :

– ولكن هي ان أحداً التقى بك صدفة ممن عرفوك في مراكش ؟

فضحكت مسز بيكر وقالت :

– وهل يصعب علي ان اتخلص من هذا المأزق ؟ سأزعم بأن لي شقيقة

تشبهني تمام الشبه وهي التي احترقت في الطائرة . وطبعاً سيكون لدي جواز

سفر باسم آخر وسأغير لون شعري ونبرات صوتي .

فأزدادت هيلاري إعجاباً بالخطة المدبرة .

وودعت مسر بيكر رفاق السفر ، فاستقلت الطائرة ، وما لبثت
أن علت في الجو وتوارت وراء الأفق .

* * *

وجاءهم أحد الخدم العرب قائلاً :

– السيارات جاهزة أيها السادة .

كانت بانتظارهم سيارتان كاديلاك يقودهما سائقان يرتديان الزي الرسمي
فاتخذت هيلاري جلستها في المقعد الأمامي بجانب السائق الفرنسي ، وكانت من
حين لآخر تحدّثه حديثاً عابراً عن المشاهد التي تمر بها السيارة .

وسأله أخيراً :

– ترى هل تطول الرحلة

– المسافة من المطار للمستشفى تستغرق حوالي ساعتين يا سيدي .

وطنت الكلمات في أذنيها ، ولأول مرة فطنت إلى ان هيلدا نيدهايم كانت
الآن تلبس زي الممرضات .

وعادت تسأل السائق الفرنسي .

– حدثني قليلاً عن المستشفى .

– إنها من أروع المستشفيات في العالم ، ومزودة بأحدث الأجهزة العلمية ،
وكثير من كبار الأطباء يزورونها من حين لآخر ثم يرحلون وهم بثنوت عليها
أعظم الشناء . إن الأبحاث التي تجري فيها لخير الإنسانية جمعاء .

فقالت هيلاري تجاريه :

– طبعاً . هنأ لاشك فيه .

واستطرد السائق :

- فيما مضى كان هؤلاء التعمساء يرسلون إلى جزيرة مهجورة فيقضون ما تبقى من حياتهم حتى يدركهم الموت . أما الآن فهم يعالجون هنا بالدواء الذي اكتشفه الدكتور كولوني ، وقد ثبت نجاحه في معظم الحالات حتى الحالات المستعصية المزمنة .

وعجبت هيلاري لحديث السائق ، إذ لم تكن تدري من هؤلاء الذين نعمتهم بالتعمساء ، ولا أي داء يعانون .

وقد وقفت بهم السيارة أمام المستشفى ، فاستقبلهم زنجي يرتدي ثياباً بيضاء فتح لهم البوابة ودعاهم للدخول .

ورأت هيلاري نفسها في فناء كبير حجز معظمه بسور من القضبان والأسلاك وراء السور كان جماعة من الناس يتمشون راثحين غادين .

فاستداروا ينظرون للقادمين الجدد ، وعندما هتفت هيلاري وهي تشفق في رعب .

- يا إلهي !. إنهم مصابون بالجذام .

ولفرط فزعها ظففت على أوصالها رعدة كادت معها أن تتهاوى إلى الأرض مغشياً عليها .

الفصل الحادي عشر

أغلقت البوابة وراء القادمين الجدد ، مرسة رنيناً حاداً بدا من هذا السكون الشامل وكأنه صادر من مطارق تدق السندان دقاً عنيفاً ، وخيل إلى هيلاري أن رنين البوابة كان يحاكي صوتاً يقول :
 « أنتم يا من قد دخلون ، اطرخوا الأمل فأنتم لا تعودون » .

نعم .. تلك هي النهاية .. النهاية الحقيقية ، نهاية بلا رجعة ، إنها الآن وحيدة وسط الأعداء ، ولن تمضي دقائق معدودات حتى تواجهه باكتشاف أمرها وانفضاع سرها .

ردار بخلدما :

الآن انطبقت على المصيدة ولم يعد أمامي سبيل إلى الفرار .
 سوف لا يقع عليها بصر توماس بيترتون حتى ينطلق صارخاً :
 - ولكن هذه ليست زوجتي .

وتنتهبها الميون من كل جانب ، بنظرات حانقة شذراء .. جاسوسة في وسطهم !

وخطر لها أن تعكس الموقف : بدلاً أن يصرح بيترتون بأن هذه ليست زوجتي ، ستبادر هي بمجرد أن يقع بصرها عليه :
 - كلا . ليس هذا هو زوجي .

وإذا استطاعت أن تجعل الحواس يدب في صوتها ، والرعب يطل من
عينها - فسوف تنجح في إثارة الشك ..
سوف يرتابون ويتساءلون :

- ترى .. هل بيطرتون هو حقاً بيطرتون ، أم عالم آخر انتحل
شخصيته ، واندس بينهم ؟ هل هو الجاسوس ، أمبا هي فالزوجة
الحقيقية ..

ولكن ، اليس معنى هذا أن يصبح بيطرتون هو الضحية ، وأن
يقضى عليه بالهلاك ؟

إن ضميرها لن يبكثها ، ولن تقدم أبداً ، فبيطرتون خائن ، إنحاز
اليهم ، وجاء اليهم ببيعهم أسرار بلاده ، فهو أهل لأن يموت ، دون
شفقة أو رحمة .

وانزعما من خواطرها اليائسة رجل عملاق الجسم وسم الوجه أقبل على
الجماعة يستقبلهم ويحييهم واحداً بعد الآخر .
وحين مد يده يصافح هيلاري رسم على شفتيه ابتسامة باهتة مصطنعة
وقال لها :

- لا شك أنك متللفة إلى لقائه .

واشتد اضطرابها ، وأخذتها غشية عابرة من الدوار ، وشرعت عينها
بنظرة تجردت من التعبير .
وبادر أندي بيمترز يلمس ذراعيها في رفق ويسندها وهو يقول المضيف
الذي جاء يرحب بهم :

- لعلك لا تعلم إن الطائرة سقطت بمسز بيطرتون ، وأنها أصيبت بارتجاج
في المخ ، وقد زادت هذه الرحلة المضنية المتواصلة إرهاقاً فوق إرهاق ، إنها
الآن يجب أن تستريح ساعة أو ساعتين في غرفة معتمة .

واستشفت هيلاري من صوته ومن ذراعه التي تسندها بادرة من الرحمة

والاشفاق .

والكنها استجمعت شجاعتها ، ورفعت رأسها وقالت :

– كلا .. كلا .. يجب أن أقابل توم .. إذهبوا بي اليه في الحال .. أريد أن أراه حالاً .

وقال الرجل العملاق الوسيم :

– طبعاً يا مسز بيترتون ، إنني أستطيع أن أدرك حقيقة مشاعرك .

وأشار إلى امرأة تقف على قيد خطوات وهو يقول :

– دعوني أقدم اليكم مسز جينسون .

وقدم اليها القادمين الجدد كل واحد بدوره .

ثم قال :

– ستصحبكم مسز جينسون إلى مكتب التسجيل وتقدم اليكم شراباً ريشما

أصعب مسز بيترتون إلى زوجها ، وسأعود اليكم بعد برهة قصيرة

واستدار منهرفاً ، وفي أعقابيه هيلاري كرافن ، وحانت منها لفتة إلى

الوراء ، ورأت بيترز يتابعها ببصره ، وخيل اليها أنه يهم في تردد أن يلحق

بها ، ثم آثر البقاء .

وقال لها الرجل وهو يعيش بها في دهاليز طويلة ملتوية :

– إنني أدعى بول فاق هايديم .

وقالت له هيلاري :

– إنه لأمر فظيع مرعب .. أعني هؤلاء المزدومين .

– إنك لن تلبثي أن تألفي رؤيتهم .

وتوقفت فجأة عند أحد الأبواب ، وقرع الباب ، وتريث برهة ، ثم

فتحه وقال :

– بيترتون . ها هي ذي هنا أخيراً .. زوجتك .

وتنحى عن الباب قليلاً ليفتح لها مكاناً للدخول ..

دخلت هيلاري إلى الغرفة . الآن لا سبيل إلى التراجع ، لا سبيل إلى التردد ، تقدمت إلى الداخل .. تقدمت أماماً .. إلى القدر المحتوم .

كان الرجل واقفاً عند النافذة ، وحين استدار إليها أدهشها أن رآته شديد الوسامة . إن الصورة التي رأتها لتوماس بيترتون لم تكن على مثل هذه الوسامة ، بل كانت مختلفة إلى حد غير قليل .

ووافتها الفكرة على الفور بسبب هذا الاختلاف ، واستقرت عليها . تقدمت إلى الأمام في خطوة سريعة ، ثم ارتدت متراجعة إلى الوراء ، ورن صوتها في أرجاء الغرفة نابضاً بالفزع واليأس :

— ولكن هذا ليس هو توم ، إنه ليس زوجي .
لقد أدت دورها باتقان منقطع النظير ، وتلاقت عيناها الحائرتان بعيني فان هايديم .

وعندئذ ضحك توم بيترتون . وكانت ضحكته لطيفة هادئة ، والتفت إلى فان هايديم الواقف بمدخل الباب وقال له .

— هذا رائع ما دامت زوجتي نفسها لم تعرفني .
وأمرع إلى هيلاري فاحتواها بين ذراعيه وضمها إلى صدره وهو يقول :
— أوليف .. حبيبتي .. إنك طبعاً تعرفيني .. إني توم طبعاً وإن لم يعد لي نفس الوجه الذي عرفتني به من قبل .
وظل يضمها إلى صدره ، والصق فمه بأذنيها وهمس :
— مثلي دور الزوجة . بالله عليك .. انني في خطر .

وخلى عنها ذراعيه ، ثم عاد يضمها إليه مرة أخرى وهو يقول :
— آه يا حبيبتي .. كانت الشهور التي انقضت بمثابة دهور ودهور ، ولكن شكراً لله .. ها نحن أخيراً قد التقينا .

وأحست بأصبعه تنغرز في جسدها محذرة ، منذرة متوسلة ضارعة وتلقت الرسالة ووعتها .

واستطرد بصوت هال :
 - أنظري الي يا حبيبتي .. إني توم .. لا شك انك الآن عرفتني .
 وتلقت هيلاري النجدة الالهية وتشبثت بها . غمغت :
 - آه .. حبيبي توم ، إنك توم طبعاً ، لا شك أن إصابتي بالارتجاج جعلتني أفقد ذاكرتي برهة .
 - ليس هذا فقط وإنما أيضاً جراحة التجميل .. إن الدكتور هيرتز جراح التجميل المشهور موجود هنا ، وقد أصلح أنفي المهشم بسبب حادث السيارة .
 واستدار يتطلع إلى فان هايديم فوجده يبتسم مفتبطاً .
 وقالت هيلاري :
 - انني آسفة يا حبيبي ، الارتجاج والرحلة الشاقة ، كل هذا أثر علي ..
 فقال لها زوجها المزعوم :
 - هوني عليك يا حبيبتي ، بعد شيء من الراحة ، سيزول كل أثر للارتجاج .
 وانسحب فان هايديم ، وأغلق الباب وراءه .
 وضمها إلى صدره وممس في أذنيها بصوت لا يكاد يسمع :
 - استمري في تمثيل دورك ، فقد يكون في الغرفة ميكرفون مخبأ .
 ومست بدورها وهي تسند رأسها إلى صدره :
 - أوبرما ثقب خفي في الجدار يراقبونا من خلاله .
 وجلسا يتناجيان ، ويتبادلان القبلات من حين لآخر ، ويستعيدان بعض الذكريات السعيدة ، وسألته :
 - هل أنت سعيد هنا ؟
 وكانت سؤالاً طبيعياً يجب أن توجهه أية زوجة لزوجها . فقال :
 - الحياة هنا رائعة .

ولكن نظراته كانت تم على الخوف والانزعاج . فسألته :
- ولكن هؤلاء المجدومين ؟ أهذه حقاً مستعمرة للجذام ؟

فضحك وقال :

- مجرد ستار نخفي وراءه حقيقة أبحاثنا وأهدافنا .

ثم أردف :

- والان تعالي لنلقي نظره على الجناح المخصص لاقامتنا .

وطاف بها غرف الجناح ، وهو يتأبط ذراعيها .

وحين عاد بها سألمها :

- أتحبين أن تستريحى قليلا ؟

واذ أجابت بالنفي قال لها :

- اذن هيا بنا الى مكتب التسجيل ، اذ لا شك انهم الان في انتظارنا .

الفصل الثاني عشر

كانت السيدة التي ترأس مكتب التسجيل شبيهة بالسجانات في صرامة وجهها وجمود قسمايتها .
فرحبت بالدكتور بيترتون في كلمات وجيزة مقتضبة .
ثم قالت له :
– إذن فقد جاءت مسز بيترتون أخيراً .
كان يبدو من لكنتها أنها سويسرية .
فأشارت إلى هيلاري تدعوها للجلوس ، وفتحت درجاً تناولت منه عدة استمارات نشرتها فوق المكتب ومضت تدون بعض البيانات
وقال بيترتون :
– إني ذاهب إلى عملي يا أوليف ، فالحق بي حين تفرغين .
وانصرف بيترتون فأوصد الباب خلفه .
ونظرت رئيسة مكتب التسجيل إلى هيلاري وقالت :
– والآن ، إسمك بالكامل والسن ومحل الميلاد ، وأسماء الأبوين ،
والأمراض الخطيرة .. وما هي هواياتك المختلفة والأعمال التي التحقت بها ،
ومؤهلاتك العلمية ، والأطعمة التي تفضلينها وهناك أسئلة أخرى سوف أرجعها
إليك فيما بعد .

فتبست هيلاري باعياء ، وأخذت تجيب على الأسئلة ، والسيدة ماضية في تدوينها بالاستمارات التي أمامها .
وأخذت الأسئلة تنوالى عليها تباعاً ، حتى كأنها سيل جارف ، لا ينتهي .

وأخيراً رفعت السيدة رأسها وقالت :
— هذا هو ما يختص به هذا المكتب ، والآن سأبعث بك للطبيبة شوارتز لتفحصك من الناحية الطبية .

فسألت هيلاري :
— وهل هذا ضروري ؟
— ضروري جداً يا مسز بيترتون ، لأننا هنا نؤمن بالكمال ، ونحب أن نثبت كل شيء في السجلات .
وقامت الطبيبة شوارتز بفحص هيلاري فحسباً دقيقاً استغرق برهة غير قصيرة .

ثم قالت لها :
— والآن عليك ان تذهبي للدكتور روبيك .

فسألت هيلاري :
— ومن يكون الدكتور روبيك هذا ؟
— طبيب نفسي .
— ولكنني لست بحاجة إلى طبيب نفسي .

فقالت الطبيبة شوارتز تخفف عنها :
— لا داعي للانزعاج يا مسز بيترتون .. إن كل ما سيجري بينكما لا يعدو اختباراً للذكاء وتحديد معالم شخصيتك .

وكان الدكتور روبيك سويسرياً في الأربعين من العمر .
فرحب بها في لطف ودماثة ، وتصفح البطاقة التي بعثت بها إليه الطبيبة

- شوارتز ، ثم قال :
- يسمدني أن أعرف ان صحتك جيدة يا مسز بيتزلون .
- ثم أردف :
- لقد بلغني انك تعرضت لحادث سقوط طائرته منذ مدة وجيزة ، اليس كذلك ؟
- فقالت :
- نعم ، وقد أمضيت خمسة أيام في مستشفى كازابلانكا .
- ولكن خمسة أيام لا تكفي إطلاقاً . كان يجب ان يستبقوك أكثر من هذا .
- فردت :
- كنت تواقفة لمقابلة المستشفى لأواصل رحلتي .
- هذا تصرف غير سليم ، فالإصابة بارتجاج المخ تحتاج برهة طويلة من الراحة والاستجمام . إنك قد تتراين سليمة في البداية ، ولكن هناك احتمالاً كبيراً لآثار جانبية خطيرة .
- إن جهازك العصبي ، فيما أرى ، مضطرب إلى حد ما ، وهذا راجع دون شك لمشقة الرحلة والارتجاج في الوقت نفسه .
- ثم سألتها :
- هل تشعرين بصداع ؟
- نعم .. صداع شديد جداً .. ومن حين لآخر أشعر بدوار ، وأفقد ذاكرتي .
- طبعاً .. طبعاً .. إنني أستطيع أن أدرك هذا .. والآن سأجري بعض الاختبارات لأتبين مستوى عقليتك .
- ومضى الطبيب روبيك يجري عليها اختباراته ويوجه اليها بعض الاسئلة ويدون حصيلة ذلك كله في استمارة أمامه .

وأخيراً قال :

— أتمنى ألا يسوؤك يا سيدتي القول أنه مما يسمدني فحص شخص ليس من العلماء العباقرة .

فضحكت هيلاري قائلة

— وما الذي يسوؤني من هذا ، وأنا أعلم أنني لست بالعبقرة ،
أو النابغة .

فقال الطبيب :

— وهذا من حسن حظك ، يا سيدتي ، فإن حياة العباقرة جحيم
لا يطاق .

واستطرد .

— إني هنا لا أتعامل إلا مع قوم مفرطي الذكاء ، وهؤلاء معرضون
دائماً للاختلال العصبي تحت وطأة الضغط الذي يعانونه . فالعالم يا سيدتي
ليس بارداً هادئاً ، كما يبدو في الظاهر . لأن أنهماكه في عمله يجعل
أعصابه مرهفة إلى أقصى حد . ولا فرق في هذا إطلاقاً بين الممثلة الأولى أو
بطل التنس أو عالم الذرة .

فردت هيلاري مؤمنة :

— صدقت ، فقد خبرت هذا بنفسني .

إذ كان المفروض أنها عاشرت ببيترتون برهة طويلة ، باعتبارها زوجته ،
وهو دون شك من العلماء العباقرة .

وكأنما شاء أن يقتضب الحديث ، فمد إليها يده بفتة يصافحها وهو

يقول :

— والآن سندهبين إلى مدموازيل لاروش فتمضي بك إلى قسم اللبوسات
لتختاري ما يروقك من الثياب .

كانت جميع النساء اللاتي التقت بهن هيلاري حتى تلك اللحظة ،

يعملن كأنهن آلات ميكانيكية ذكرتها بالإنسان الآلي روبرت أما
مدموازيل لاروش فكانت على العكس مرحلة متدفقة الحيوية اطمأنت
هيلاري للقائها .

قالت الفتاة :

— إني سعيدة بأن أتعرف اليك يا سيدتي وأتمنى أن أوفق في تقديم كل
مساعدة ممكنة .

ثم أكملت :

— بما أنك وصلت لتوك لا شك أنك لا زلت متعبـة . ولذلك أشير
عليك بأن تكتفي الآن بالبقاء بعض الشباب الداخلية الضرورية وفستان
واحد ، وغداً وفي خلال الأيام التالية يمكنك البقاء نظرة على ما لدي من ثياب
ومن مستحضرات التجميل .

فردت هيلاري معقبة :

— كل ما أرجوه من دنيابي أن أملك مشطاً وفرشاة .

فضحكت مدموازيل لاروش في مرج ومضت تدون مقاسات عملتها في
مفكرة لديها ثم قالت :

— سأبحث على الفور إلى جناحك بكل ما وقع عليه اختيارك ، وإنه
ليس مدني ان تتردي على الحل من حين لآخر فقد تبين أن لك ذوقاً
رفيعاً في الاختيار . أما هؤلاء السيدات « العالمات » فقد ضقت بهن ذرعاً ،
خاصة وإنهن لا يبدن أي اهتمام بمستحضرات التجميل .

ثم استطردت :

— منذ نصف ساعة كانت لدي هنا واحد منهن أثارت أعصابي . إحدى

زميلاتك في السفر .

قالت هيلاري :

— لعلك تعنين هيلدا نيدهايم

- تماماً . هذا هو اسمها .. فهي ألمانية طبعاً ، والألمانيات عادة لا يحفلن بالتجميل ، مع انها يمكن ان تبدو جميلة لو هي أبدت بعض الاهتمام بنفسها ، فهي دكتوراه فيما فهمت ، ولكن الرجل لا يبحث عن المؤهلات العلمية وإنما عن لمسة من الجمال والأنوثة .

آه .. ها هي في أخرى لا يمكن لرجل أن ينظر اليها .

فقد بدت مس جينسون في مدخل الغرفة وفوق عينيها نظاره صغيره عتيقة الطراز .

فقالت مس جينسون

- إذا كنت قد فرغت يا مسز بيترون فسأصحبك لمقابلة نائب المدير الدكتور نيلسون .

فقالت هيلارى في نفسها :

- كل من هنا يحمل لقب دكتور ، عداي أنا .

ثم علت صوتها متسائلة :

- وما هو تخصصه ؟

- انه ليس طبيباً ، فهو حاصل على الدكتوراه في فن الإدارة ، ومن عادته أن يقابل كل واحد جديد ليتحدث اليه ولكنك لن تقابليه بعد هذا إلا اذا ثارت مشكلة مهمة .

* * *

ونفض الدكتور نيلسون من خلف مكتبه يحييها ، ويشد على يدها في حرارة .
وقال لها :

- يسمعنني مشاهدتك بيننا يا مسز بيترتون ، ودعيني أهنئك بالنجاح من هذا الحادث المؤسف الذي وقع لطاؤرتك .

فشكرته على لطفه ، واستطرد يقول :

- اني مستعد لان أجيب على أي سؤال يخطر بذهنك ، فهل لديك ما تحبين ان تستفسري عنه ؟

فبدت علائم الحيرة في وجهها وقالت :

- الحق اني لا أعلم ، ولكن العمل كل ما يعنيني أن أستفسر عنه هو أن أعرف أين أنا الآن ؟

وابتسم نيلسون وأجاب :

- اني أفهم ما يجول في ذهنك .. انكم تعتقدون جميعاً للوهلة الاولى لفرط ما سمعتم من مفتريات أنكم ذاهبون الى موسكو - خلف الستار الحديدي ، ولكن لا يا سيدي ، انك الآن في افريقيا .. في قلب الصحراء المراكشية ، ومستعمرة الجذام التي تعيشين الآن بين أسوارها ، هي بمثابة الستار الحديدي ، لانها ترد عن علمائنا المتطفلين الذين يحاولون أن يكتشفوا مقرهم .

فردت .

- صدقت .. فقد تخيلت في البداية اننا مسافرون الى موسكو

واستطرد الدكتور نيلسون :

- انك ستعيشين هنا في عزلة تامة عن العالم ، ولكن وسائل الترفيه

والتسلية متوافره ..

ان لزوجك عمله الذي قد يشغله عنك ، فقد ينكب على العمل ليل نهار ولا يفرغ لك الا نادراً ، ولكنك يمكنك ان تشغلي نفسك بقضاء الوقت مع

زوجات العلماء وسوف تجدنهم لطيفات ودودات

وسألته بشيء من الإحجام :

– لكن هل يسمح لنا بالخروج ؟
فنظر اليها وقال متردداً :
– الخروج يا مسز بيترتون ؟

فقال بركة :

– سؤال طبيعي لا بد ان يصدر من كل وافد جديد .. لكن المبدأ
الأساسي الذي تدين به منظمتنا هو أننا هنا في دنيا قائمة بذاتها ، لا شيء يدعونا
لتجاوز حدودها ونذهب لخارجها .. فهي دنيا كاملة ذات اكتفاء
ذاتي شامل .

الفصل الثالث عشر

قالت هيلاري وقد عادت إلى جناحها :

– إن الحياة هنا شبيهة بجو المدارس .

فقال بيترتون :

– هذا ما يحسه المرء في البداية . أنا نفسي داخلي هذا الشعور

حين جئت .

كان الحديث بينهما يدور في تحفظ وحذر خشية أن يكون هناك

ميكروفون مدموس بين الأثاث أو في الجدران .

ثم أردف :

– وهذا ما يرتد بنا إلى عهد الطفولة السعيدة .

وغمز بعينه .

فلم يغب عنها النذير المقصود

وبدا لها الأمر كله عجبا .

فهي ذي في قلب الصحراء تشارك شخصاً غريباً مخدعه وتشاطره فراشه ،

ومع ذلك فإن في التوجس والقلق والخطر المسيطر عليهما ما جعل الرابطة

التي بينهما مفككة منفصمة .

وعادت إلى الحديث فقالت

- لقد أجروا علي عدة فحوص طبية ونفسية .
- هذا ما يفعلونه دائماً مع القادمين الجدد .
- فهل فحصت أنت أيضاً؟
- انه أمر طبيعى .
- واستطردت :
- وبعد ذلك قابلت الدكتور نيلسون نائب المدير فتبادلنا الحديث فترة قصيرة .
- إنه إداري حارم قدير .
- ولكني لم أقابل المدير بعد
- أحسب أنك لن تقابليه أبداً ، وإن كان من حين لآخر يلقي علينا بعض المحاضرات ، انه رجل ذو شخصية جذابة .
- وقطب بيترتون جبينه ، وأدركت انه يريد أن يثنىها عن مواصلة الحديث ..
- فما كان منها إلا أن لاذت بالصمت .
- وقال لها بيترتون :
- إنهم يتناولون العشاء هنا ابتداء من الثامنة مساء ، فيحسن بنا يا عزيزتي أن نستعد للنزول ..
- وأبدلت ثيابها ، وارتدت الفستان الذي جاءت به من قسم الملابس ، وتحملت بمقد من اللآلىء المقلدة .
- فهيبطا معاً إلى قاعة الطعام ، وخفت مس جينسون إلى استقبالها قائلة :
- لقد أعددت لك يا قوم مائدة كبيرة بشارككا فيها بعض رفاق زوجتك في السفر فضلاً عن مارشيسون وزوجته .
- وأرشدتهما إلى المائدة المقصودة ، وكان آفدي بيترز وأيريكسون قد

سبقاً اليها وانتظما حولها ، وقدمت « زوجها » إلى الرجلين . ولم يلبث الدكتور مارشيسون وزوجته أن لحقا بهم ، وقدمها بيترتون إلى الآخرين وهو يقول :

– سيمون وأنا نشتغل معاً في معمل واحد .

وكان سيمون مارشيسون شاباً نحيفاً في السادسة والعشرين ذا وجه باهت اللون .

أما إمرأته بيانكا فكانت ممتلئة الجسم إلى حد ما ، وبحديثها لكنة أجنبية واضحة .

وزحبت بيانكا بيلاري في لهجة مهذبة ، ولكن في شيء من التحفظ ، ثم قالت متسائلة :

– انك لست عالمة فيما أعتقد .

– كلا .. اني لم ألتق تدريباً علمياً فقد كنت أعمل سكرتيرة قبل زواجي .

وقال الدكتور مارشيسون :

– لقد درست زوجتي الاقتصاد والقانون التجاري ، وهي تلقي علينا بعض المحاضرات من حين لآخر ، وان كانت لا تجد إلا نفرأ قليلاً يوم محاضراتها .

فهزت بيانكا كتفها في استخفاف وقالت :

– لقد استطعت على أية حال أن التمس هنا ما اشغل به وقتي ، فقد بدأت في دراسة أحوال مجتمعنا هذا حتى أعمل على تطويره وتحسينه ، وما دامت مسز بيترتون غير قائمة ببحث علمي ، فإن في وسعها أن تساعدني في مهمتي .

وسارعت ترحب بالاقتراح
وأضحكهم آندي بأن قال

– أرجو أن يعمدوا الي بالعمل على الفور ، والا انقلبت تلميذاً أمضي وقتي في لعب البلي .

وقال سيمون ماشيسون في حماس :

– هذا مكان رائع للبحث العلمي ، فكل الأجهزة متوافره ولا أحد يقصم نفسه أو يقطع عليك عملك .

وسأله بيترز :

– ما تخصصك يا دكتور ؟

وأخذ الرجلان يتداولان حديثاً علمياً بحتاً ، فتحولات مسز بيترتون إلى ايريكسون الذي كان متراخياً في مقعده بعينين شاردتين وسأله .

– وأنت ؟ أترك أيضاً تحس حنيناً للوطن .

فتأملها بنظرة شاردة وقال :

– اني رجل لا أؤمن بمثل هذه الترهات الفارغة : الوطن ، روابط الأسره

والطفل ، مشاعر المحبة والوفاء – كل ذلك هراء ، ان المرء لكي يعمل يجب أن يكون حراً طليقاً لا يشده أي نوع من القيود .

– أو تشعر انك هنا ستكون حراً طليقاً ؟

– هذا ما أرجوه ، وان كنت لا أدري الحقيقة حتى الان .

ومالت بيانكا الى هيلاري تقول :

– بعد العشاء لدينا الكثير مما نشغل به وقتنا .. غرفة لعبة البريدج مثلاً

والعاب الورق الأخرى ..

قاعة لسينما تعرض أفلاماً حديثة ، وقاعة للتمثيل تعمل ثلاثة أيام كل

أسبوع ، وكذلك سهرات راقصة من حين لآخر .

وقطب ايريكسون جبينه وقال :

– كل هذا لغو لا جدوى من ورائه . انه يصرف الباحث عن عمله ويبدد

نشاطه ..

فقلت بيافكا :

- لكن هذا الذي تسميه لغواً ضروري لنا معشر النساء .
- فنظر اليها بنظرة باردة كأنما يقول :
- وحق انتن معشر النساء لا ضرورة لكن ..

وتعمدت هيلاري أن تتثائب وقالت :

- أما أنا فسأوى الليلة إلى فراشي مبكرة إذ لا زلت متعبة مرهقة .
- فردت بيافكا :

- إنك على حق يا عزيزتي ، فقد كابدت الأهوال فضلاً عن هذه الرحلة المضنية .
- فقال بيترتون وهم يزابلون المائدة :

- الجو الليلة منعش لطيف ، وقد اعتدنا ان نقضي بعض الوقت في حديقة السطح قبل ان نمضي إلى العمل أو النوم فلم لا تصحبينا يا عزيزتي أوليف .

وكانت حديقة السطح تحفة فنية رائعة ، كانت بستاناً حافلاً بأجمل أنواع الزهور وأندرها ، تتوسطها نافورة صغيرة يتدفق منها الماء رشاشاً متناثراً ، تنعكس عليه أضواء ملونة خلابة .

وقالت هيلاري في افتتان :

- إني لا أصدق ما ترى عيني ، أيقوم هذا في قلب صحراء قاحلة مجدبة ؟
- فكأنني أعيش في قصة من ليالي ألف ليلة !

فقال مارشيسون :

- صدقت يا مسز بيترتون ، ولكن ما دام الماء غزيراً والمال متوافراً ، فلا شيء مستحيل .

- لكن من أين لكم بهذا الماء الغزير ؟

- من نبع عميق حفرناه في الجبل بأحدث الأساليب العلمية .

فأخذوا يتمشون في حديقة السطح قليلاً ، ويتسامرون بالحديث . ثم انسحبوا واحداً بعد الآخر ، فلم يبق أخيراً إلا توماس بيترتون « وزوجته » هيلاري .

فأخذ بيدهما وأجلسهما على أحد المقاعد المتناثرة في أنحاء الحديقة، فوقف في مواجهتهما، وحددجهما بنظرة متسائلة فقال :

- والآن . من أنت بحق الشيطان ؟

فرفعت وجهها تنظر إليه برهة دون ان تجيب، وبدلاً من أن ترد على سؤاله قالت تسأله :

- لماذا كذبت فزعمت إني زوجتك ؟

فتبادلا نظرات صامتة . وأخيراً قال بيترتون :

- مجرد تزوه طارئة .. فقد خطر لي انك ربما جئت لتخرجيني من هنا .

- يا إلهي !. أهذا سؤال توجيهينه إلي ؟ إن الإجابة واضحة معروفة .

فعادت تسأله :

- ولكن كيف جئت إلى هنا ؟

فانفجرت شفتاه عن ضحكة مبتورة وقال :

- إذا كنت تقصدي اني اختطفت أو شيئاً من هذا القبيل فانزعي هذه

الفكره من رأسك .. فقد أتيت إلى هنا من تلقاء نفسي وبمحض إرادتي ، وكنت ممتلئاً حماسة .

- وهل كنت تعرف انك قادم إلى هذا المكان

- كلا .. لم يخطر لي أبداً انني آت إلى افريقيا . ولم أحاول أبداً أن

أسأل .. فقد احتواني البريق الخداع ، وأخذتني الكلمات الحماسية : السلام

العالمي .. الحرية المطلقة .. إقتسام الأسرار العلمية بين دول العالم جمعاء ..

القضاء على الرأسماليين وتجار الحروب . نعم .. كل هذه الترهات المزوقة .

وصاحبنا بيترز الذي صحبك في رحلتك ، انه أيضاً ابتلع الطعم .

- وما الذي اكتشفته بعد ان وصلت ؟

- سوف ترين بنفسك ، لكن يكفي أن أقول لك ان الحرية التي حملنا بها

لا وجود لها هنا .

وجلس يجانباها على الأريكة مقطب الجبين وقال :

— ونفس الوضع هو الذي أثارني بانجلترا وجعلني أكره البقاء فيها ..
تدابير الأمن الصارمة .. التجسس على حرياتي وسكناتي .. تعقب خطواتي
ومحاسناتي على كل كلمة أتفوه بها ، كل هذا حطم أعصابي .

واستطرد بنفس النبذة البائسة المكتوبة :

— ثم جئت هنا فإذا الفردوس الموعود مجرد سراب ، فقد عانيت نفس
الأوضاع ، بل أشد هولاً .

أحدث الأجهزه العلمية رهن اشارتنا والمال متوافر لإجراء الأبحاث التي
نجرىها ، ولكنني مع هذا لا أملك إلا ان أشمر بأني في سجن تحف به الأسوار
والقضبان .

فران عليهما الصمت ، ثم استدار اليها متسائلاً :

— والآن فلنعد الى ما كنا فيه .. ما الذي جعلك تحضرين هنا وتزعمين
انك أوليف ؟

— أوليف ؟

تم أمسكت تلتمس الكلمات الملائمة لكي تجيب على السؤال .
وعاد يتساءل :

— ولكن أين أوليف ؟ ما الذي جرى لها ؟

وتاورت وتحايلت على الكلمات ، ثم اضطرت أخيراً ان تجيب .

وحلق فيها شاردأ ثم قال :

— اذن فأوليف ماتت .

وغرق في صمت طويل ، ثم رفع رأسه أخيراً وقال :

— أوليف ماتت ، وحللت أنت مكانها .. ولكن لماذا ؟

وكان الجواب حاضرا في ذهنها . لم تكن هيلاري كرافن حق هذه
الاحظة مطمئنة تماماً الى بيترتون ، وكانت تراه مزعزع الأعصاب وشيكاً على

الانبيار ، فمن دواعي الحكمة ان تحجب دونه أسرارها .
فقد قال لها في بداية الحديث انه حسبها انت لكي تنقذه « وتخرجه من
هنا » فلم لا تجاريه فيما أظن ؟ ان من الطماقة ان تصارحه بأنها مجرد جاسوسة
وقدما جيسوب لنوافيه بما تقع عليه من معلومات .

فردت تجيب على سؤاله :

— كنت مع زوجتك في المستشفى حين ماتت ، فتطوعت لأداء هذه المهمة
وقررت أن أنتحل شخصيتها واسمها ، خاصة وان قوامي يشبه قوامها ،
وشعري الأحمر بلون شعرها .

— حقاً .. فإن لك نفس الشعر الأحمر النحاسي . لكن ما هي الرسالة التي
أرادت أوليف ان تبلغها الي ؟

— أتعرف شخصاً يدعى بورييس ؟

— نعم ، بورييس جلايدر .. اني لم أقابله مطلقاً ، لكنني ابن عمه
زوجتي السابقة .

— لقد أرادت أوليف ان تكون منه على حذر .. قالت انه خطر .

— خطر ؟ . ولماذا يكون خطراً علي ؟ . هذا عجيب .. أترأه قابل
أوليف ؟ .

— هي لم تقابله ولكنها تلقت رسالة منه .

— وما الذي قاله لها ؟

— هذا لا علم لي به ، ولكنها ذكرت جملة أخرى ، قالت : « تذهبين ؟ .
تذهبين ؟ . اذهبي وحديثه عن بورييس .. انني لا أصدق هذا .. لا أستطيع
ان أصدق .. ولكن ربما كان صحيحاً . واذا كان فيجب ان . ان يكون
على حذر ، .

وكانت هذه آخر كلمة نطقت بها ، ثم لفظت النفس الاخير .

— بورييس ا.. ولكن لماذا ؟ .. لماذا ؟ .. هذا لا أستطيع أن

أتبينه .

ولاذ بالصمت برهة ثم عاد يقول :

- يا الهي ! لقد قضي علي بأن أبقى هنا الى الابد .. خلف القضبان .

فردت هيلاري بصوت مليء بالثقة والايان .

- بل لا بد ان نخرج من هنا .

- لكن كيف ؟ كيف ؟ إن هذا مستحيل .

- لا مستحيل في الدنيا .. سنجد وسيلة .

لم تكن هيلاري مؤمنة بما تقول ، ولكنها أرادت أن تثبت في نفسه الشجاعة والأمل حتى لا تنهار أعصابه فأكملت :

- لا داعي لليأس .. هناك سجون ومعتقلات حصينة استطاع من فيها أن يهربوا منها بوسيلة ما .. بحفر نفق مثلا .. كل ما هنالك ان الأمر يحتاج الى التآني والوقت .

فردد في يأس :

- ومن أين لي الوقت ؟ ألا تعرفين ما يحدث هنا ؟ إنهم يريدون من العالم الذي يأتون به هنا ان ينتج شيئا . يريدون منه ان يبحث وأن يخرج عليهم باكتشاف عبثي ، أما إن عجز فهل تدرين مصيره ؟

- يعيدونه الى بلاده طبعاً ؟

- بل يتخلصون منه .. يقتلونه !

- يقتلونه ؟ اني لا أصدق هذا .

- بل تلك هي الحقيقة ، لانه لم يعد ذا نفع لهم ، بل أصبح عبثاً عليهم .

وقد أصبحت أنا هذا العبء المكروه .. فإن شعوري بأنني سجين هنا شل تفكيري ، فلم أجد قادراً على مواءمة البحث ، فلم أنتج شيئاً منذ

حضرت . وقد ظنوا ان ابتمادى عن زوجتي هو الذي جمد عبقريتي ، ولذلك أرسلوا يستدعونها ، والآت وقد حضرت انت باعتبارك زوجتي فلأنهم لن يصبروا علي أكثر من هذا .
فإما ان أنتج ، وإما ان أقتل .

فأخذت هيلاري بذراعه وهي تقول :
- والآن فلنعد الى جناحنا فقد تأخر بنا الوقت .
ثم أكملت :

- نم مطمئناً ، فسوف نجد وسيلة للفرار .. نعم .. حتماً ، سوف نهرب !.

الفصل الرابع عشر

في فندق د المأمون ، في مراکش كانت مسر جانيت هيدر نجتون مجتمعة بشخصين ، أحدهما غيسوب ، والآخر فرنسي تشع عيناه ذكاء .
ولكن هيدر نجتون هذه لم تكن تلك التي رأيناها من قبل تتعرف الى هيلاري في كازابلانكا وفزان وتضي معها معظم الوقت .
كان لها حقاً نفس القوام ، ونفس الملامح ، ونفس هيئة الشعر وتلصيقه .
ولكن هيدر نجتون هذه كانت تبدو أصغر سناً وأكثر حيوية ، فقد كانت عند لقائها بهيلاري تخفي سماتها الحقيقية .
وقال لها غيسوب مستطرداً في الحديث :

— اذن فهؤلاء هم الوحيدون الذين اتصلوا بها في فزان ؟
— كان هناك أيضاً هذه المرأة المدعوة كالفن بيكر التي تعرفت بي وبأوليف بيترتون ، وقد حيرني أمرها كثيراً ، فقد بدا لي انها أقعمت نفسها على مسز بيترتون ، بيد انها أمريكية الجنسية ، ومن عادة الأمريكيين أن يترددوا أو يتحدثوا الى كل انسان على غير سابق معرفة .

وعقب غيسوب :

— هذا صحيح .

فقالت جانيت هيدر نجتون :

– ولكن الغريب الذي يسترعي النظر انها استقلت نفس الطائره .
فتساءل غيسوب :

– أتريدن أن تقولي أن سقوط الطائره كان حادثاً مديراً ؟
ثم التفت الى الشخص الفرنسي وسأله :
– ما رأيك في هذا يا ليبلان ؟

فرد الفرنسي :

– هذا محتمل ، وان كان من المستحيل أن نقيم الدليل على هذا ، فقد
احترقت واحترق كل من فيها .
– وما رأيك في الطيار ؟

– الكادي ؟ انه طيار مغامر مرن الضمير ، ولا يسمى الا وراء المال ،
ولا يؤمن بشيء من المعتقدات السياسية ، بل لا شأن له بالسياسة على
الاطلاق .

– اذن فلا يمكن أن يكون قد قام بتخريب الطائره لكي ينتحر ويضحي
بنفسه ..

فقال ليبلان

– عثرنا بين حطام الطائره على سبع جثث غارقة متفحمة اخفت معالمها.
وعادت مس هيندرنجتون لمتابعة حديثها وقالت :

– وقد قبادلت مسز بيترتون بضع كلمات مع أسره فرنسية كانت تنزل
مع اطفالها في نفس الفندق ، وكان في الفندق أيضاً سويدي من الأثرياء مع
احدى نجوم السينما .. وكذلك مستر اريستيد المليونير اليوناني صاحب آبار
البترول .

فقال ليبلاند

– هذا الشخص عجيب الشأن ، فرغم ملايينه التي لا تحصى فهو عزوف
عن النساء ، لا يلعب الميسر وليس لديه جياذ للسباق ، وانما يحبس نفسه في
قصره في اسبانيا لا يبرحه الا نادراً ، وليس له من هواية الا جمع التحف

الصينية .

واستطردت جانيت هيذر نجتون :

– وفيما أعلم لم تتبادل مسز بيلتون حديثاً لا مع الثري السويدي ولا مع المليونير اليوناني

فسألها غيسوب :

– والخدم والجرسونات ؟

– هذا محتمل دائماً .. وقد زارت المدينة القديمة مع أحد الأدلاء ، وبمجرد عودتها قررت أن تسافر إلى مراكش ، فمن المحتمل أن يكون أحد قد اتصل بها أثناء زيارتها للمدينة القديمة .

وقال غيسوب :

– وكذلك قررت مسز كالفن بيكر فجأة أن تصحبها في رحلتها إلى مراكش .. ألا يبدو هذا أمراً غريباً ، وهي التي كانت في مراكش منذ فترة وجيزة ؟

ومضى غيسوب يذرع الغرفة وهو غارق في التفكير ..

ثم قال :

.. كلما تمكنت في الأمر ازددت اقتناعاً بأن سقوط الطائرة كان حادثاً مدبراً .

فقال ليبلان

– من السهل جداً الهبوط بالطائرة إلى الأرض وإحراقها عمداً ، ثم الادعاء بعد ذلك بأنها سقطت واحترقت ، ولكن كيف تعمل وجود الجثث بين الحطام هل يمكن أن يرضى ركبها بأن يقبعوا في داخلها ساكنين حتى يحترقوا ؟

وقال غيسوب .

فلنلق نظرة أخرى على قائمة الركاب .

وتناول ليبلان ورقة مطوية من جيبه ، ونشرها أمامه ، وانكب عليها

الرجلان يتصفحانها .

– مسز كالفن بيكر ، أمريكية .. مسز بيترتون ، انجليزية ..
توركيل- أركسون ، ترويحي في الساعة والعشرين وإني أذكر اسمه فقد سبق
له أن ألقى بعض المحاضرات في الجمعية الملكية .

واستطرد ليبلان :

– وبعد ذلك راهبة المانية ، ثم أندروبيترز الأمريكي الجنسية ، والدكتور
بارون أشهر علماء الجرائم في العالم .
فقال غيسوب معقبا :

– محال أن يكونوا قد ضحوا بهؤلاء الأفاذا عدا .. لا بد أن في الأمر
سراً ولكن المشكلة هي تلك الجثث التي وجدت محترقة بين الحطام .
ورن جرس التليفون وتناول ليبلان الساعة ، وأنصت برهة إلى محدثه ،
ثم قال وقد أشرق وجهه وتألقت عيناه :
– حسناً . حسناً جداً .. ابعت بهم إلي في الحال .

ثم تحول إلى غيسوب قائلاً :

– يبدو يا عزيزي انك على صواب فيما ذهبت اليه ، لقد أمرت رجالي بأن
ينتشروا في كل مكان يبحثون ويتحرون وقد عادوا إلي بمعلومات على غاية
قصوى من الأهمية .

فتساءل غيسوب :

– حقاً ؟ وما الذي جاءوا به .

– مهلاً ، مهلاً . وسوف ترى .

وفتح الباب بعد لحظات ودخل شخصان يرتدي أحدهما الزي الأوروبي ،
وكانت ثيابه معطرة دلالة على انه قادم لتوه من السفر ، وكان برفقته شخص
آخر يرتدي العباءة المراكشية الفضفاضة .
وقال الأوروبي :

- لقد قمنا بتحريرات واسعة ووعدنا من يدلي الينا بأي معلومات بمكافأة جزيلة ، وقد انتشر صاحبنا هذا (وأشار إلى الرجل العربي) وأفراد أسرته وأصدقائه في كل مكان يسألون ويستفسرون ، وقد رأيت أن آتي به معي لتسمع منه بنفسك ما لديه من معلومات .

والتفت ليبلان إلى العربي قائلا :

- إن لك فيما أرى يا صاح عين صقر تستطيع أن ترى كل شيء ، ولا يمكن أن يفوتها شيء ، فهيا هات ما عندك .

وأخرج الشخص من طيات عباءته لؤلؤة كبيرة يضرب لونها إلى القرمزي وقال :

- إنها شبيهة تماما باللؤلؤة التي عرضتموها علي وعلى رجالي ، لقد عثرنا عليها .

وتناولها منه غيسوب ، وقارنها بلؤلؤة أخرى أخرجها من جيبه ، فكانتا متماثلتين تماما ، ثم أخذ عدسة مكبرة وفحص اللؤلؤتين بدقة .
وغمغم يقول :

- نعم .. إن العلامة ظاهرة .. إنها فتاة رائعة .. رائعة ! لقد نفذت عملياتي ، يا لها من فتاة !

وفي خلال ذلك كان ليبلان منهمكاً في استجواب الرجل العربي ، فلما فرغ منه تحول إلى غيسوب قائلا :

- هذه اللؤلؤة يا زميلي العزيز وجدت على مسافة نصف ميل من حطام الطائرة ، وجثتها ليست قطعاً إحدى الجثث السبع المتفحمة التي وجدت بين الحطام .

وقال ليبلان وهو يتصفح قائمة ركاب الطائرة مرة أخرى :

- أوليف بيترتون والدكتور بارون .. هذان الاثنان على الأقل ذاهبان حتماً إلى حيث يراد لهما بأن يذهبا . أما الأمريكية كالفن بيكر فيمكننا

أن نخرجها من حسابنا . وتوركيل أريكسون له أبحاث عرضت على الجمعية الملكية العلمية ، والأمريكي بيترز باحث كياوي طبقات لما ورد في جواز سفره ، والراعية الألمانية هيلدا يمكن أن تكون عالمة متفكرة في هذا الزي ، الواقع ان الجماعة كلها من الأخصائيين ، فهل جمعهم معاً في طائرة واحدة كي يحرقوها ويقضوا عليهم ؟ هذا طبعاً فرض مستبعد .. أخرجهم طبعاً من الطائرة ثم أحرقوها فمن أين جاءوا بالجثث التي وجدت متفحمة بسين الحطام ؟

فقال غيسوب :

— فلنطرح هذا البحث الآن جانباً ، فهو ليس بذي أهمية .. المهم أننا عرفنا أن ركب الطائرة لم يحترقوا معها ، وإنما بدأوا رحلة جديدة من حيث عثرنا على الحطام - فما هي الخطوة التالية ؟ هل نزرع موقع الحادث ؟

وبدأت حملة بحث دقيقة على طول الطريق ، أسئلة في كل خان .. وأسئلة في كل محطة بنزين .. وأسئلة في مختلف القرى . وأخيراً أسفر البحث عن شيء ..

قال ليبلان :

— انظريا صديقي .. لقد فتشوا المراحض كما أمرت فعثروا على هذه اللواؤة في خان عبدالله ملصقة بالجدار بقطعة من اللبان ، وقد استجوبناه وأفراد أسرته ، فأذكروا كل شيء في البداية ، ثم اعترفوا وقالوا أن ستة أشخاص في سيارة رحلات نزلوا بالخان ، وذكروا انهم بعثة ألمانية للبحث والتنقيب عن الآثار ، وطلبوا منهم أن يتكتموا الأمر ، لأنهم يقومون بالعمل خفية دون تصريح من الحكومة ، ونقدوم من المال قدراً كبيراً ، وفي قرية « الكيف » عثر بعض الغلمان على لواؤتين أخريين ، وبذلك عرفنا اتجاه السيارة .

وفي الصباح التالي جاء رجال ليبلان باكتشاف جديد ، لقد عثر العرب

على ثلاثة لآلىء صفت على شكل مثلث ، وملصقة فوق قطعة من اللبان .

وقال غيسوب :

- اللآلىء المثلثة الشكل معناها أن الطائرة هي وسيلة الانتقال في المرحلة القادمة من الرحلة .

فقال ليبلان :

- إنك على صواب يا صديقي ، فقد عثروا على هذه اللآلىء في مطار حربي مهجور كان يستعمل خلال الحرب .

ثم أردف :

- والآن فتملك هي المشكلة ، بل أعقد المشاكل طائرة مجهولة ، نتجه الى مكان مجهول .

وتنهّد قائلاً :

- وعند هذا تتوقف أبحاثنا ، وبضيع منا الأثر .

الفصل الخامس عشر

أقبلت مس جينسون بعينيها الذابتين تتألقان تحت نظارتها العتيقة الطراز ذات الزجاج السميك وقالت مخاطب هيلاري :
- لدينا اجتماع هذا المساء سيخطب فيه المدير نفسه .
فقال بيترز معقبا .
- حسناً .. فقد كنت أتمنى أن ألقى نظرة على هذا المدير الخفي .
فرمته مس جينسون بنظرة لوم وعتاب ، ثم استدارت منصرفه .
قال بيترز :
- يبدو لي انها تعبده كما كانوا يعبدون هتلر .
فقالت هيلاري :
- وهذا ما تراه لي .. إنها فاشيستية متحمسة .
وقال بيترز مستطرداً :
- حين غادرت الولايات المتحدة كنت ممتلئاً حماسة وشباباً ، أتوق إلى دنيا تسودها الأخوة والسلام . لكن لو اني توقعت اني سألقى بنفسى بين براثن هذا الديكتاتور لما تركت وطني .
فهمت هيلاري وقد تضرع وجهها احمراراً :
- لكم يسمدني ان اسمعك تقول هذا ؟ وكم يسمدني ان التقيت بك

فأنت رجل ظريف وبسيط .

فرد ضاحكاً :

— يبدو لي أنك ضقت بمعاشرة العباقرة .

— صحيح ، ثم أنك تغيرت كثيراً في الأيام الأخيرة ، فزايملك شعور الكره والمرارة .

— إنك مخطئة بهذا .. فهنا .. في أعماقي .. لا زال الحقد كامناً يتأجج ويتلظى .. نعم ، يا أوليف .. هناك أشياء يجب أن يبغضها الإنسان .

* * *

بعد العشاء انعقد الاجتماع الذي أشارت اليه مس جينسون في قاعة المحاضرات وحضره جميع أعضاء البحث العلمي ، من علماء ومساعدين وكيمائيين وغيرهم .

واتخذت هيلاري مجلسها بجانب « زوجها » المزعوم بينرتون ، وهي أشد ما تكون لفة إلى مشاهدة الرجل الذي يدير هذا المركز ويفرض عليه قيوده وأغلاله .

فقد سألت عنه زوجها فكانت إجابته متسمة بالغموض .

قال : قد رأيته مرتين فقط ، انه شخص عظيم ذو شخصية طاغية جبارة يستحوذ على عقلك ويخضعك لسلطانه بمجرد أن يتكلم .

وأخيراً ظهر الرجل على منصة الخطابة ، ووقف الحضور جميعاً تحية له .

كان رجلاً متوسط العمر متين البنيان ، لا بالطويل ولا بالقصير ، يتميز

بمعينين تشعان ذكاء متألّفاً ، وله نظرات نفاذة كأنما ليسري فيها نيار كهربائي قوي .

حين وقف يتكلم تعلقت به العيون في انتباه شديد .
إستهل خطابه بأن قال :

— دعوني أولاً أرحب بزملائنا الجدد الذين انضموا إلينا في الأيام الأخيرة .

ثم شرع بمعدّث يتحدث عن أهداف المنظمة وأمانيتها .

وحاولت هيلاري فيما بعد تستعيد في ذهنها ما سمعته ، فاستمعصى عليها الأمر ، وخيل اليها انه لم يتفوه إلا بكلمات عادية مرسلة جوفاء ، وإن كان الانصات اليه أمراً مختلفاً جداً . فحين يتكلم تحس بسحره يطفئ عليك فيأخذك ويحتويك ، لكن إذا ما حلت كلماته وجدتها مجرد لغو لا يقدم ولا يؤخر .

فذكرت هيلاري عندئذ ما حدثها به صديق لها عاش في المانيا في الحرب ، وكيف كان الشعب الألماني يحن ويشتمل حين يستمع إلى هتلر .
وكان خطيب الليلة أيضاً من ذلك الطراز العجيب .

سحر الحاضرين بكلماته ، فجعلوا يتابعون كلماته مشدوهين كأنما يهيمون في السماوات .

فتكلم الخطيب في البداية عن الشباب ، ودور الشباب في حكم العالم ، وان مستقبل البشرية منوط بالشباب .

قال : الثروات المكدسة ، والنفوذ الإقطاعي ، والأميرات الكبيرة المتضامنة ، تلك كلها أسلحة الماضي . أما اليوم فالشباب هو مصدر القوة والسلطان . نعم . إن العقول هي القوة .. عقل الكياوي ، والعالم الطبيعي ، والمهندس .. من بطون المعامل أيها الأصدقاء تنبثق القوة التي يمكن أن تدمر العالم .. وهذه القوة في أيدينا يمكن أن نقول للدنيا : إما التسليم وإما الموت ! .

واستطرد :

— وهذه القوة المدمرة الهائلة لا يصح أبداً أن تكون في يد دولة واحدة ، وإنما أن تتقاسمها جميع الدول ، وأن تكون ملكاً للجميع .. إنكم أيها الأصدقاء جئتم من جميع البلاد ، وجئتم معكم بأعظم ما وصل اليه العلم من اكتشافات ، كما جئتم معكم بالشباب ، فليس من بينكم من تجاوز الأربعين .. فهنا سوف نقيم دولة الشباب لكي تحكم العالم .. سنقول للدنيا : ها قد جاء الشباب ليحكم ويسيطر .. أيها الرأسماليون .. أيها الملوك .. يا رجال الصناعة ، ويا قادة الجيوش ، تخلوا عن مقاعدكم ، فالشباب قد جاء ليحكم !

وعلى هذا النسق جرت الخطابة كلها .. كلمات رنانة مدوية خللت الباب السامعين وسحرتهم ، فما أن فرغ منها حتى هبوا جميعاً وقوفاً يصفقون ويهلمون .

* * *

فأخذ آندي بيترز بذراع هيلاري قائلاً :

— هيا بنا إلى حديقة السطح لأنني بحاجة إلى الهواء النقي .

فقال لها وهما يتمشيان في الحديقة :

— هيا انفضي عنك سحر الرجل فقد كاد يفسد عقولنا .

— الحق أن كلماته سحرتني ، وإن كانت كلها عبارات جوفاء فارغة .

واستطرد بيترز يقول :

— إنني بعد أن استمعت إلى هذا الخطاب ازددت عزمًا على أن أخرج من هنا .

- لكن كيف ؟ . كيف ؟ . إنني أراه طريقاً مسدوداً لا سبيل إلى
ثغرة فيه !

-- هل حسبتني خاملاً متواكلاً .. إنني ماضٍ في تدبير خطي .

- هل ستوفق ؟

- هذا ما أتوقعه .

- هل تنوي ان تأخذني معك ؟

فتأملها لحظة ثم قال :

- وهل يخامرك شك بهذا ؟

فسألته :

- وبيترتون طبعاً ؟

فتجهم وجهه وقال :

- صدقيني ، يا أوليف ، فيما أقول ، إن من الأسلم لبيترتون ، أن

يبقى هنا .

فنظرت اليه باستغراب وقالت :

-- من الأسلم أن يبقى هنا . ماذا تقصد ؟ . أتعني أن عقله قد اختبل وانه

أصبح مجنوناً ؟

- إنه سليم العقل .. مثلي ومثلك تماماً .

- إذن فلماذا يبقى هنا ؟ . الملك تعتقد انه خان وطنه وباع أمراره العلمية

إلى المنظمة ؟ . ألا تعلم انه متلفف للهرب ؟

فقال بيترز في أسى :

- لقد حذرتك وحسي هذا .

ثم أردف :

- بالله عليك ما الذي يجعلك تهتمين بهذا الرجل ؟

وممت بأن تصرخ فيه :

- لكنني لا أهتم به .. إنك أنت الوحيد الذي أهتم به لأنني ..
لأنني أحبك .
ولكنها في اللحظة الأخيرة أمسكت بالكلمات التي كادت ان تنطقها ،
واكتفت أن نظرت اليه نظرة قفيض أسمى ومرارة .

* * *

قال لها بيترتون وقد عادت إلى جناحها :
- هل قضيت وقتاً ممتعاً مع صديقك الأمريكي ؟
فتضرج وجهها احمراراً وردت :
- أتراك تغار منه ؟ أنسييت انه كان رفيقي في السفر ؟
فضحك بيترتون وقال :
- لا ألومك على أية حال فإنه وسم جذاب .
واستطرد يقول :
- وأنت أيضاً امرأة جميلة ، لم أفطن إلى ذلك من قبل لأنني مشتت
العقل لا أستطيع ان أركز تفكيري على شيء .. هذا المكان يخنقني ويحطم
أعصابي .
- ولكن الآخرين يعملون ويفكرون فلم لا تكون مثلهم .
- لأنهم جماعة من الحمقى ماتت مشاعرهم .
- لكن لا شك ان فيهم نفراً مرهفي الاحساس .
ثم أردفت :
- لم لا تتخير من بينهم صديقاً فتجد في صحبته ما يرفه عنك ؟
- إن مارشيسون هو صديقي الوحيد .

فقلت في دهشة واستنكار :

— حقاً ؟ ولكني لا أرتاح لهذا الرجل ، إنه يخيفني .

— توركيل يخيفك ؟ إنه رجل وديع مسالم كأنه طفل .

فمادت تقول في عناد :

— مهما يكن فإنه يخيفني .. ولم أتمنى ان تقطع صلتك به .

— ولكن لماذا ؟ ما الذي تأخذينه عليه ؟ لماذا تكرهينه ؟ ما الذي

يخيفك منه ؟

— لا أدري . مجرد هاجس بنفسي .. مجرد إلهام .

الفصل السادس عشر

قال المفتش إيبلان :

– لا شك أنهم غادروا أفريقيا بالطائرة

فرد غيسوب :

– ليس الأمر مؤكداً

– ولكن الاحتمالات كلها تشير إلى هذا .. إننا جميعاً نعرف الجهة التي

يقصدونها .

وهذا أيضاً أمر غير مؤكد ، فإذا كانوا قاصدين إلى هذه الجهة فما الذي
يجعلهم يتكبدون مشقة السفر أولاً إلى أفريقيا ، وبعد ذلك يسافرون إلى
تلك الجهة ؟ إن من الأسهل عليهم أن يسافروا إليها رأساً من أوروبا .

فقال إيبلان

– هذا صحيح ، ولكن لعلهم فعلوا هذا ليضلوا كل من يحاول أن

يتعقب أثرهم ، إذ لن يخطر لأحد أن أفريقيا هي مقر الاجتماع .

بيد ان غيسوب ظل متشبثاً برأيه ، فقال :

– انني أعتقد أن في الأمر سرّاً خفياً ، فالمطار صغير الحجم لا يتسع

إلا لطائرة صغيرة ، إذا عبروا بها البحر الأبيض استهدفوا المخاطر لا داعي

لأن يعرضوا أنفسهم لها ، فضلاً عن ذلك ، فلا بد أن يهبطوا في أكثر من

مطار ليتزودوا بالبئزين . وفي هذا ، ما يسترعي الأنظار اليهم
فينكشف أمرهم .. كلا يا عزيزي ليبلان . انني أعتقد أنهم لم يبرحوا
افريقيا .

فقال ليبلان

– ولكننا لم ندع مكانا الا فتشناه .

فقال غيسوب :

– اننا افترضنا انهم سيعبرون البحر الأبيض ، ولذلك اتجهت أبحاثنا
فاحية الجنوب ، فلم لا نعاكس الأمر ونغد بحثنا إلى الشمال ؟

– ولكن ما عسى تكون وجهتهم ؟ ليس في الشمال الا جبال شاهقة تمتد
وراءها صحراء شاسعة بلا حدود

فغمغم غيسوب متأملا :

– من يدري .. من يدري !

* * *

قال الرجل الأسمر الوجه الذي ينحدر من قبائل البربر :

– انك أقسمت يا سيدي أن تقى بوعدك .

فرد عليه اندرو بيترز :

– طبعاً سأفي بوعدي .

– وهل ستكون مكافأتي محطة بنزين في أميركا ، في شيكاغو ؟ هل أنت
متأكد ؟

– اني متأكد يا محمد طالما استطعت أن تخرجنا من هنا .

– ان النجاح مرهون بإرادة الله ..

- اذن دعنا نأمل أن تكون ارادة الله قد قضت لك بمحطة بنزين في شيكاغو .. ولكن لماذا شيكاغو بالذات ؟

- لأن شقيق زوجي مقيم في اميركا ولديه محطة بنزين في اميركا ، ولا أريد أن اكون دونه مقاماً .. لدينا هناك مال كثير وطعام وفير ونساء جميلات ، ولكن أميركا بلاد متحضرة .

وقال بيترز

- اذك تذكر طبعاً انم ان عثروا علينا فإننا ..

فقال محمد مقاطعاً :

- ان عثروا عليكم فالموت جزائي ، ولكنهم لن يمسونكم أنتم بسوء لأنهم في حاجة اليكم .

وقال محمد :

- ومع ذلك فلاني لا أخاف الموت .. ان الموت مكتوب على البشر بأيديهم من حيث لا يدركون . الموت هو قضاء الله .

فسأله بيترز :

- وهل وعيت تماماً ما أريده منك؟

- نعم يا سيدي .. على أن اصعد بك الى السطح بعد هبوط الظلام .. وأن آتيك بثياب مراكشية مشبهة تماماً للثياب التي ارتديها أنا والخدم .
- تماماً . واذا نجحنا فلك محطة البنزين الموعودة .

* * *

في ذلك المساء أقيمت حفلة سامرة ، دار فيها الرقص والشراب ساعات متصلة ..

ورقص اندرو بيترز مع مس جيفسون ، وكان يضمها الى صدره في رقة ،

وبدا انه كان يهمس في أذنها بكلمات ناعمة ويناجيها ، فقد كانت نظراتها تشع أحلاماً من وراء زجاج نظاراتها المزدوج السميك ، وفي دورانها حول القاعة ، مرا بهيلاري ، فغمز لها بيترز بعينه خفية عن زميلته ، وأشاحت هيلاري بنظرها بعيداً ، وقد زمت عينيها استياء .

وقع بصر هيلاري على توم بيترتون وقد انتحى بتوركبل ايريكسون جانباً من القاعة ، وهما منهمكان في الحديث .
وسمعت هيلاري صوتاً الى جانبها يقول :

– اتسمحين لي بهذه الرقصة يا اوليف ؟
وكان ماشيسون هو الذي يتوجه اليها بالخطاب ؟
وأجابت :

– يسمدني ان اراقصك يا سيمون .
وقال ينذرهما :

– ولكن يجب أن احذرك من انني أجيد الرقص .
وابتسمت له هيلاري دون ان تعقب بكلمة ، ولكنها ركزت انتباهها طوال الوقت حتى لا يبطأ قدميها .
وقال لها ماشيسون وانفاسه تتابع لاهثة :

– الرقص يحتاج الى متابعة التدريب ، ولكني بكل اسف لا أرقص الا نادراً ..

ثم تطلعت اليها ..

وقال مبتسماً :

– ما أجمل هذا الفستان ..

وادركت هيلاري على الفور انه لقن هذه العبارات دون شك من كتاب عتيق عن : ، كيف تتحدث وانت ترقص ، .
وأجابت :

– يسرني انه راق لك .

– انك طبعاً اشتريته من قسم الملابس هنا .

وكان هذا منه سؤالاً سهيفاً لا داعي له ، اذ من اين لها به الا ان يكون من قسم الملابس « هنا » !

واستظرد ماشيهون بعد لحظات وقد اشتدت انفاسه انبهاراً لفرط ما ادركه من التعب :

– انهم هنا يحسنون معاملتنا . كنت اقول لبيانكا بالأمس ان كل شيء متوافر هنا .. الطعام جيد وفير ، والأجر ضخم مجز ، ولنا مطالبين بشيء من الضرائب ، اننا في الحق نعيش هنا حياة رائعة .

فسألته هيلاري :

– وهل تراها بيانكا حياة رائعة ؟

فقال في شيء من التردد :

– لقد خامرنا شيء من الضيق في البداية ، ولكنها ما لبثت ان الفت الحياة هنا ، واخذت تشغل فراغها بالنشاط الاجتماعي ، وكانت تتمنى لو انك شاركتها نشاطها .

– اني امرأة منطوية على نفسي ، ولا يستهويني النشاط الاجتماعي .

– هذا عجيب .. فإن المرأة العصرية ، مولعة بأن تشغل نفسها

بأي شيء .

ثم اردف :

– انني لا اجهل ان النساء اللاتي آفرن القدوم الى هذا المكان – من

مثيلاتك انت وبيانكا .. اقدمن دون شك على تضحية جسيمة ، فانت مثلاً

لست من العلماء ولا عمل لديك هنا ، وزوجك منشغل عنك طوال الوقت ،

غارق في عمله بين انايب الاختبار .. وقد قلت لبيانكا ان اوليف قد تضيق

في البداية بهذه الحياة ، ولكنها ان تلبث ان تألفها وتعتاد عليها .

وانتزعها من خواطرها ان ظهر الدكتور نيلسون في صدر القاعة ولوح بيده . . . فسكتت الموسيقى وكف الراقصون عن الرقص . وقال الدكتور نيلسون يخاطب الحاضرين :

— ايها الأصدقاء والزملاء .. انكم ستضطرون غداً الى ان تلزموا جناح الطوارىء لا تخرجون منه ، فهناك بعثة قادمة لزياره المستشفى ، وليس لهم طبعاً ان يشاهدوا احداً منكم ، ولكن الأمر ان يطول اكثر من اربع وعشرين ساعة ، فبمجرد انصرفهم تعودون الى سابق حريتكم ، وتجولون في ارجاء المكان كما تشاءون .

وعلى اثر هذه الكلمات انسحب من القاعة وعادت الموسيقى الى عزفها والحاضرون يرقصون .

ومال بيترز الى هيلاري يقول :

— اذن فغداً سنحبس في سجن خاص ، كأننا لا يكفيننا هذا السجن الذي نعيش فيه .

* * *

في صباح اليوم التالي دوى جرس الانذار فهرعوا جميعاً الى قاعة المحاضرات ، ومن هناك تولت مس جينسون ارشادهم الى جناح الطوارىء . مشى بهم في دهاليز متعرجة لا تنتهي ، وكان بيترز يسير متأبطاً ذراع هيلاري ، وقد اخفى في يده بوصلة صغيرة . وقال لها :

— هذه البوصلة قد تهدينا الى الطريق فيما بعد حين تدعو الحاجة . وانتهروا الى دهاليز طويل توقفوا فيه ، وضغطت مس جينسون على زر في

الجدار ، فدار الجدار حول نفسه ، وانكشف عن فجوة كبيرة نفذوا من خلالها الى جناح الطوارىء .

واخرج بيترز علبة سجائره المصنوعة من غلاف القنبلة ، وتناول منها سيجارة ..

وقبل ان يشعلها ارتفع صوت الدكتور نيلسون قائلا :

– ان التدخين ممنوع ايها الأصدقاء ؟

ورد بيترز معتذراً :

– آسف

وأعاد السيجارة إلى علبته ، ولكنه لم يعد العلبة إلى جيبه ، بل استبقاها في يده !

ودخلوا إلى قاعة فسيحة ، صفت الأمرة في ركنين منها ، ركن للرجال وآخر للنساء ، وفي ركن ثالث وضعت مائدة كبيرة وحولها المقاعد .. كما كان هناك بار كبير في الركن الرابع ، وسط القاعة ، فشغلته المقاعد والفوتيلات .

وقالت غيسوب مخاطبة الحاضرين :

– ستجدون هنا كل ما تحتاجون اليه من شراب وطعام ، ولكن المقام لن يطول بكم في هذا المكان ، فما أن تنصرف البعثة حتى يباح لكم الخروج .

* * *

كانت القاعة بلا نوافذ ، ولكنها كانت مزودة بأجهزة التكييف ، كما كانت بها رفوف تكدست فوقها الكتب لمن يحبون القراءة .

ومال بيترز إلى هيلاري يقول هامساً :

– الجدران صماء بلا نوافذ حتى لا يفتن أحد في الخارج الى أن في هذا

الموقع قاعة فيها علماء من الذين اختفوا من كل أرجاء الدنيا .
وانقضى النهار في هدوء وسلام ، وأمضى الحاضرون وقتهم في القراءة
أو الكتابة أو لعب الورق ، أو الحديث .
وأخيراً حانت ساعة النوم ، فنهضت هيلاري واقفة وحيت من معها ،
معتذرة بأنها تريد أن تأوي إلى فراشها .
على أنها مشيت عبر القاعة بضع خطوات حتى لمست يد ذراعها ،
فاستدارت ورأت إزاءها عربياً أسمر الوجه يرتدي ثياب المزركشة
التي يلبسها الخدم .
وقال لها الرجل :
- أرجو أن تأتي معي ..
فسأله :
- آتي معك ؟ ولكن إلى أين ؟
فلم يزد على أن قال :
- أرجو أن تتبعيني يا سيدتي
وتسمرت مكانها برهة مشردة .
والمرة الثانية أحست بيد العربي على ذراعها وهو يقول مكرراً :
- أرجو أن تتبعيني يا سيدتي .
ورأت ان لا مناص من الاذعان ، فمشت وراء الرجل بضع خطوات ، ثم
استدارت تتطلع إلى خلفها .
ورأت بيترر يتابعها بأنظاره ، وكأنما يريد ان يلحق بها .
ومشى بها الرجل إلى باب سري في ركن القاعة ، وفتحته بفتح صغير
في جيبه .
ثم خرج بها إلى دهلز قصير ، وفتح باباً آخر انكشف عن مصعد مخبأ
في الجدار ، ودعاها إلى الدخول

وقالت له هيلارى والمصعد يشق بها الطريق :
- ولكن إلى أين تذهب بي ؟
- إلى « السيد » يا سيدتي ، وهذا شرف عظيم .
- اتقصد المدير ؟

- بل « السيد » نفسه يا سيدتي .
وتوقف المصعد ، وخرجت منه هيلارى في اعقاب الدليل . فاجتاز بها
ردهة فرشت بالسجاد ، ثم فتح باباً في صدر الردهة ، ودعاها للدخول .
كانت الغرفة مؤثثة على الطراز الشرقي ، صفت بها الأرائك المنقوشة ،
ووضعت فوقها الوسائد .
وهناك على اريكة في صدر القاعة كان هناك رجلاً جالساً يدخن
في هدوء .
وتطلعت الى وجه الرجل ، ثم حملت عينيها دهشة ، فما كان هذا الرجل
إلا المليونير اليوناني : مستر اريستيد .

الفصل السابع عشر

قال مستر أريستيد :

— إجلسي يا سيدتي العزيزة .

فأوما بيده إلى إحدى الآرائك فمشت إليها هيلاري في صمت مأخوذة
مشدومة كأنها في حلم ، واستوت جالسة .

فأطلق المليونير ضحكة خافتة مبتورة وقال :

— إنك مندهشة طبعاً ، فليس هذا ما كنت تتوقعين .

فردت هيلاري :

— كلا بالطبع .. فلم يخطر لي أبداً أن .. لم أكن أتصور أن ..
وأمسكت لا تتم ما كاد يجري به لسانها .

إذن فمستر أريستيد هو منشيء هذا المركز العلمي ، إنه صاحب كل تلك
التدابير ، ومن ملايينه المكسدة ينفق على الأبحاث الجارية .

فقالت هيلاري :

— إذن فكل هذا ملك لك ؟

— نعم يا سيدتي .

— والمدير ؟ ما شأنه ؟

— مجرد موظف يتولى إدارة العمل والقاء المحاضرات واستقبال البعثات

التي تزور المستشفى .

فلاذت بالصمت وغرقت في خواطرها .

وقال لها :

– لديك قهوة تركية رائعة ، أو غيرها من المشروبات إن شئت .

ثم استطرد :

– إنني رجل محب للخير والإحسان ، كما أنني غني جداً كما تعرفين ..

إنني من كبار الأغنياء في العالم ، بل لعلني أغنى رجل في الدنيا .. والثراء يفرض على صاحبه التزامات معينة حيال الإنسانية ، ولذلك أقمت هذه المستعمرة المجذومة ، وزودتها بأعظم العلماء والأطباء لدراسة الجذام ، واكتشاف علاج ناجح له ، وقد وفقنا بهذا إلى حد كبير فقد شفيت حالات كثيرة ، وإن كانت هناك بعض حالات استعصت على الشفاء ، وليس هذا فقط إنني أنشأت مركزاً آخر لأبحاث الجدري ومركز ثالثاً لأبحاث السرطان .

ونفث المليونير بضعة أنفاس من سيجارته ثم تابع :

– إن الجذام مرض رهيب ، وفيما مضى كان المجذومون يطردون إلى خارج المدن حيث يتركون في العراء حتى توافيهم المنية . أما اليوم فهنا في مركز الأبحاث الذي أنشأته يعالجون ويشفون .

وسكت مسروراً يستعيد هنيئة ثم استطرد :

– لكن ليست المراكز العلمية هي الهدف الذي أرمي إليه .. إن مستعمرة الجذام ليست إلا ستاراً أخفي وراءه « مجمع العلماء » .

فتساءلت هيلاري :

– مجمع العلماء ؟

– نعم .. إنني أجمع العلماء هنا في ركن خفي من المستعمرة ليقوموا بأبحاث

سرية من نوع آخر .

– لمخترعوا لك أجهزة التدوير .. لكن لماذا ؟ لماذا تريد أن تدمر الدنيا

يا مستر أريستيد ؟

- أنا أريد ان أدمر الدنيا يا عزيزتي ؟ انك بهذا تخطئين في حقي يا سيدتي
إنني رجل محسن يحب للخير ، ومع ذلك فأنا في نفس الوقت « رجل أعمال » .

فنظرت اليه باستعراب قائلة :

- رجل أعمال ؟ ماذا تعني ؟

- حين تزيد الثروة عن حدها تصبح شيئاً مزعجاً يحطم الأعصاب ،
فيسمى المرء إلى أشياء يرفه بها عن نفسه . وقد ألجأت الى جمع التحف
واللوحات حق ضقت بها ، ثم هويت جمع طوابع البريد . فكانت مجموعتي أشهر
وأعظم مجموعة في العالم . أما اليوم فلأنني أجمع « العقول » .

فرددت وراءه :

- العقول ا .

- نعم ، فهي أمتع هواية مارستها .. انني أجمع عقول المباشرة ، ورويدا
رويدا ستكون لدى في هذا المركز أعظم العقول العلمية في الدنيا ، لكني
لا أنتقي الا الشبان وحدهم . وسيحل يوم ينتبه فيه العالم على انه أصبح
خالياً من العلماء . ولم يعد لديه منهم الا المسنون والعجائز . وعندئذ يتجه
العالم الي ويتوسل ان أمدّه بمن لدى من علماء شبان . ولما كنت رجل أعمال كما
قلت لك فلأني لن أتردد في ان أبيع للدول « علمائي » .

- تببيع لهم علماءك ؟ أم سلعة في نظرك ؟

- ولم لا يكونون ؟

- اذن فهذا كله مشروع تجاري بحث لا شأن له بالسياسة .

فقال مستر اريستيد :

- السياسة ؟ . اني رجل أمقت السياسة والسياسيين .

- ألا تريد ان تسيطر على العالم وتحكمه ؟

- وما يعني من العالم حق أشغل نفسي به ؟ . انني لا أريد ان أكون الها

أدير العالم .. انني رجل مؤمن .. انني مجرد فاجر ، والعلماء هم تجارتي .. انهم السلعة التي أتعامل فيها .

– واذن ، فما هذا الذي سمعته عن الشباب وحكم الشباب ، وان المستقبل لهم ؟

– مجرد كلمات جوفاء تخلب البوابهم وتستحوطهم ، فهذه هي النعمة التي يجلبها الشباب .

– لقد ظننت انك تريد منهم ان يخترعوا لك آلات الدمار والهلاك حتى تهدد الدول بما لديك وتتولى حكم الدنيا .

فأغرق مستر اريستيد في الضحك وقال :

– هذا شيء لم يخطر لي ببال .

– لكن كيف استطعت ان تجمع كل هؤلاء العلماء هنا ؟

– اني « أشتريهم » ، كما يشتري الانسان سلعة معروضة في السوق .. أشتريهم بالمال والأحلام ، فمعظم الشباب يعيشون في الأوهام والأحلام ، وما علي الا ان أجاريهم في أوهامهم فيتهاافتون علي وأنقدم اجراً ضئيلاً .

– اذن فهذا تعامل ما لاحظته عليهم من انهم يعتنقون عقائد مختلفة ، ولا تربطهم عقيدة سياسية واحدة ، فهذا الأمريكي بيطرز يساري متطرف ، وايريكسون رجل الاحلام والمثل العليا والانسان المتفوق السوبرمان ، أما هيلدا نيدهايم ففاشيستية متحمسة تملك قلباً من الصخر ، مجرداً من المشاعر . أما الدكتور بارون ..

فقاطعها اريستيد :

– الدكتور بارون رجل جشع لا يعبد الا المال ، وقد نقدته ما يسد جشعه .

ثم أردف وهو يضحك :

– انك امرأة ذكية يا سيدي ، فرغم قصر المدة التي قضيتها مع هؤلاء

العلماء فإنك استطعت ان تنفذي إلى بواطن نفوسهم .. نعم .. انك امرأة شديدة الذكاء ، ولعلك لا تعلمين اني إنما ذهبت إلى فزان لأراقبك عن كثب . فتساءلت هيلاري :

– لكن لماذا ؟ ما الذي دفعك الى الاهتمام بأمري .

– إن العباقرة الذين يضمهم هذا المركز أفذاذ في أبحاثهم ، لكنهم غير اجتماعيين وصحبتهم لا تلد لأحد ، ونسائهم غيبات يثرن الضجر والملل ، وأنت الوحيدة الذكية بينهم . واستطرد :

– إنني عادة لا أحبذ وجود الزوجات هنا إلا إذا دعت الضرورة ، كأن أرى الزوج عاجزاً عن الاكتشافات والاختراعات وتركيز الذهن لفرط قلقه على زوجته التي تركها خلفه . ولقد كان هذا شأن زوجك ، منذ حل بهذا المكان ، ولهذا أتيت بك ، ولقد خاب ظني في زوجك ، يا سيدتي العزيزة .

فقلت هيلاري :

– لكن لا بد ان يحدث هذا من حين لآخر ، لأن العالم لا يمكن أن يبتكر ويخلق الا اذا شعر انه حر طليق . وهم جميعاً يشعرون دون شك ، أنهم يعيشون سجناء خلف الأسوار والقضبان ، ولهذا لا بد أن يتمرّدوا ويشعروا من حين لآخر .

– لكن العصفور لن يشور اذا زودناه في قفصه بكل ما يحتاج اليه : الطعام والماء ورفيقتة .. انه لا يلبث أن ينسى الدنيا الخارجية ، وسينسى أنه كان حراً في يوم من الأيام . ان الحرية مجرد عادة .

فردت بصوت مرتعد :

– انك تخيفني بهذه الآراء .

ثم أردفت :

– لكن العالم الذي سوف تبنيه قد يرفض ان يعمل في خدمة سيده الجديد وقد يتمرد ويسعى الى أن يكون حراً ، فالحرية ليست « عادة » كما تزعم انت بل هي « غريزة » كامنة في النفس .. حتى الطفل الصغير يسعى الى الحرية ، ويتمرد على أوامر امه .

– أما سمعت أبداً يا عزيزتي عن عملية « غسل المخ » ؟ . إذا شعرت بأن الرجل بدأ يثور ويتمرد فلا أسهل من ان نجري له عملية « غسل مخ » ، فينقاد وديعاً كالحمل المطيع . هناك عقارات يحقق بها الانسان فتوذي الى هذه النتيجة .

– لكن ألا تخشى أن يؤثر هذا على قدرته على التفكير وان يفقد عبقريته أو بعضها على الأقل ؟

– ان غسل المخ لا يؤثر اطلاقاً على القدرة على التفكير ، كل ما هناك انه يجعل المرء وديعاً مسالماً مستكيناً .

فهمت هيلارى :

– هذا فظيع ا . هذا رهيب ا .

– لكنه مفيد .. انه يجعل الرجل بلا هموم او قلق .

فهمت رأسها في عناد وتشبث وقالت :

– لا زلت أعتقد أن عملية « غسل المخ » تشل القدرة على التفكير .

– نحن على أية حال ؛ ماضون بأجراء التجارب ، وقد وصلنا الى نتائج

مبشرة .

– وهل تجرون التجارب على الحيوانات ؟

فضحك وقال :

– حيوانات ا . نحن نجريها على البشر ا

فهمت هيلارى باستنكار :

– البشر ا

- طبعاً ، فبعض العلماء الذين حضروا هنا أثبتوا أنهم فاشلون ، ولم يكتشفوا شيئاً ، فأى نفع لهم عندما ؟
- لكن أمن حقكم أن تتخذوهم حقلاً للتجارب ؟
- ولم لا ؟. لصالح الإنسانية .. نحن هنا ، نضحى بالفرد من أجل المجموع .
- فنظرت إليه هيلارى في ذهول .. هذا الرجل لا بد ان يكون مخبول العقل .
- فقال لها أرسيتيد :
- لكن ما الذى يعنىك انت من الامر كله ؟ ان الذى يهلك هو زوجك دون الآخرين .. أتخشى ان أجرى عليه تجاربي ؟
- هذا ما أتوقعه ما دمت تجده « غير منتج » .
- ثم أردفت :
- أتوسل اليك ان تطلق سراحه وتعيده لبلاده .
- فضحك اريسيتيد في سخرية وقال :
- أعيده لىكى يفشى سرى ويتحدث بما رأى هنا .
- سأطلب اليه ان يقسم على الكتمان واذا أقسم فسوف يفى .
- فاشتدت ضحكته سخرية وقال :
- انه رجل لا يفى بالعهد ، فقد فشى الى كل ما يعرف من أسرار علمية لقاء ما تقدمته من مال .
- ثم استطرد :
- ومع ذلك فلانى على استعداد لان أطلق سراحه ولكن على شرط .
- وما يكون هذا الشرط ؟
- أن تبقي أنت هنا رهينة لدينا حتى لا يفشى اسرارنا خوفاً عليك مما قد يصيبك . فهل انت على استعداد لقبول هذه التضحية ؟

وهمت بأن تقول له ان يتركون بالنسبة اليها رجل غريب ، وانه ليس زوجها ، وان عينيها لم تقع عليه الا يوم اقت المركز العلمي .

لكنها بدلاً من هذا قالت :

- نعم ، اني على استعداد للبقاء .. رهينة كما تقول انت .

فقال اريستيد :

- وفي هذا ما يسعدني .. فأنت امرأة ذكية ، وانا أحب الذكيات من النساء .

وسرح ببصره هنيئة ثم قال في شرود :

- ثم ان لك شعراً احمر ، وقد كانت زوجتي ذات شعر احمر ، فما رأيتك حتى أهجت في نفسي عواطفني التي ماتت وخذت .. نعم .. انني أشعر لأول مرة منذ سنوات طويلة بأن جاذبة الحب بدأت تشتعل في قلبي من جديد ، وسوف أجعلك أسعد النساء .

فتفرست فيه لحظة ثم هتفت :

- كلا .. كلا .. لا اريد ان أبقى .. اريد ان ارحل عن هذا المكان .. اتوسل اليك ان تطلق سراحني .

فرماها اريستيد بنظرة طويلة ثم قال :

- بل ستبقين هنا .. الى الابد ! . نعم .. انت وزوجك ، لن ترحلا ! .

الفصل الثامن عشر .

أفاقت هيلاري كرافن في جوف الليل على مدير طائرة يشق سكون الليل ، وارتكزت على مرفقها قنصت إلى الأزيز .
ثم فادت على توم الذي كان مستغرقاً في نومه ، على سرير آخر بالقرب منها ..

وقالت له وقد أفاق :

- توم .. أسمع أزيز الطائرة ؟ إنها تطير منخفضة فوق البناء ..

فقال وما زال النعاس يغالبه

- إن الطائرات لا تفتأ تروح وتغدو في هذه المنطقة .

- ما يدريني إنها طائرة جاءت لي ..

ثم بترت جملتها ولاذت بالصمت ..

ولم يسألها توم عما كانت بسبيل التفوه به ، إذ ما لبث أن غرق في النوم من جديد .

ولبثت هيلاري صاحبة وهي تستعيد إلى ذهنها دقائق ذلك الحديث الذي جرى بينها وبين أريستيد .

لقد هام بها المعجوز حبا ، ولم يتردد في أن يصارحها . بالمشاعر التي

يحيش بها فؤاده .

فهل تستغل هذا الوضع وتلعب بهذه الورقة ؟

عندما يحىء في المرة التالية ويدعوها إلى لقائه سوف تستدرجه إلى الحديث عن زوجته ذات الشعر الأحمر .

إن الذي اجتذبه اليها لم يكن جمالاً خلاباً ، أو قواماً ساحراً ، وإنما قاج من الشعر الأحمر .

فهو شخص عزوف عن النساء .. بعيد أن يفكر في الجنس ، ولكنه يستعيد « فيها » ذكريات الشباب التي اندثرت .

إنها بشعرها الأحمر ، تذكره بتلك التي أحبها على عهد الصبا والشباب ..

فهل تراها تستطيع أن تستغل فيه هذه النزوة لكي تحمله على أن يضعها معه إلى العالم الخارجي لا بد أن أجد وسيلة للفرار طالما قالت في نفسها :

- لا بد أن أخرج من هذا السجن .

لا بد أن أجد وسيلة للفرار ..

فهل يكون « أريستيد » هو طريق الهرب ؟

* * *

قال المفتش ليبلان وقد أشرق وجهه :

- رسالة .. ها نحن أخيراً نتلقى رسالة ؟

كان سكرتيه قد دخل عليه يحمل إليه ورقة مطوية .

تناولها منه ليبلان وفضها ، وجرت عليها حيناه سريماً ، ثم قال في
اذنهم :

– هذا تقرير من أحد الطيارين الذين عهدت اليهم بأن يمسحوا الصحراء
في المنطقة المتاخمة لجبل أطلس .

فتساءل غيسوب :

– وما الذي جاء في التقرير

فأجاب :

– إنها مكنوبة بالشفرة ، ويقول فيها أنه عند طيرانه فوق موقع معين
في المنطقة الجبلية ، تلقى إشارة لاسلكية بطريقة « المورس » وقد كررها
مرسلها ثلاث مرات ، وهذا نص الإشارة اللاسلكية .

وبسط أمام جيسوب ورقة لا تحمل إلا هذه الكلمات :

« كوج جذام سيل » .

واستطرد المفتش يقول :

– أما الكلمة الأولى « كوج » فهي كلمة السر التي نعرف بها أن الرسالة
اللاسلكية صادرة من أحد رجالنا .. وليست مدسوسة علينا . والكلمة
الثالثة « سيل » شفرة سرية معناها « لا أعلم شيئاً » ، والكلمة الوسطى
جذام معناها واضح .

فسأل غيسوب :

– جذام .. هل لديكم في هذه المنطقة مصحات للجذام ؟

فرد الشرطي الفرنسي :

– لست أدري .. ومع ذلك فيمكننا أن نتأكد .

وجاء بخريطة نشرها على المكتب ، وانكب عليها يفحصها ، وأرمأ

باصبعه إلى موضع فيها وقال :

– هذه هي المنطقة التي كان طيارنا يحوم فوقها .

ثم أخذ يقرأ البيانات المدونة بهامش الخريطة وعاد يشير إلى نقطة ملونة باللون الأحمر وقال :

— هنا .. أنظر .. إنها مستعمرة للجذام .

— ومن صاحبها ؟ من الذي يديرها ؟ الحكومة الفرنسية ؟

— لا أعلم ، سوف نرى ، لحظة واحدة .

وغادر غرفته ، وعاد بعد لحظات يحمل مجلداً ضخماً أخذ يقلب صفحاته حتى استقر على صفحة معينة وقال :

— هاك ما نبحث عنه . في هذا المكان المهجور من الصحراء مستعمرة

للجذام أنشأها وينفق عليها رجل محسن محب للخير من كبار الأغنياء ، وهي تضم مركزاً علمياً لأبحاث الجذام والسرطان والجذري .

وفي المستعمرة نحو مائتين من المجذومين يشرف على علاجهم أشهر الأطباء ، كما يقومون ببحث علمي يهدفون به اكتشاف دواء ناجع للجذام .

وهذا المركز العلمي فوق الشبهات ، كما انه تحت رعاية رئيس الجمهورية نفسه .

فقال غيسوب

— عظيم .. عظيم جداً . وماذا لديك أيضاً من بيانات ؟

واستطرد ليبلان :

— ومن حين لآخر تقوم بزيارة هذا المركز العلمي بعشرات من كبار الشخصيات ومشاهير الأطباء ، فتتفقده وتطلع على ما أحرزه من تقدم علمي .. ثم تعود هذه البعثات وهي تردد أعظم الثناء دون أن تستريب في شيء .

— هذا لأنهم يرون ما يراد لهم أن يشاهدوا ، ولكنهم لا يرون ما لا يراد لهم أن يشاهدوا : انني أشعر أن هذا المركز العلمي ما هو إلا

ستار يهدفون به إلى إخفاء نشاطهم المريب ، فلا أصلح من المكان الشرعي المحترم لإخفاء عمل غير مشروع وغير محترم .

فقال ليبلان في شيء من التردد :

- هذا محتمل .. في مثل هذا المكان القصي المهجور الذي يقع في قلب الصحراء ، يمكن تخبئة العلماء الذين اختفوا مدة أسبوعين أو ثلاثة حتى يواصلوا رحلتهم بعد ذلك إلى محطة الوصول المجهولة .

فقال غيسوب :

- إنني أعتقد ان هذا المركز العلمي هو نفسه محطة الوصول .. هو نهاية الرحلة ..

فسأل المفتش :

- وما يحملك على هذا الظن ؟

- لأنه لا داعي لإنشاء مستعمرة « يحبس » فيها المجرمون ، فإن الجذام اليوم ، مع أساليب العلاج ، يمكن أن يعالج في البيت ..
فيما مضى ، كانوا يعلقون في رقبة المجرم جرساً فإذا مشى في الطرقات أرسل الجرس رنيناً ، فيتنبه الناس ويبتعدون عن طريق المصاب بهذا الداء .

أما اليوم فالأمر يختلف ، ولا داعي لإنشاء مستعمرة لعزل المصابين فيها ، ولذلك أعتقد ، أن لهذا العمل الانساني المتسم بالخير ، هدفاً آخر ..

إن هذه المستعمرة ليست الا مجرد واجهة تستر وراءها غرضاً خفياً ..

فقال ليبلان ..

وما زال التردد يساوره

- ولكن المليونير أريستيد ، صاحب هذه المستعمرة رجل فوق

الشبهات .. انه من أكبر الأغنيا في هذا العصر ، ومن كبار المحسنين المحبين للخير .. إن له مستشفيات خيرية في باريس وفي ليون .

– وهل نسيت ان اريستيد كان موجوداً في فزان في الوقت الذي كانت فيه أوليف بيترتون موجودة هناك ؟
– اكان هناك حقاً ؟ اذن فالأمر غريب !

فرد غيسوب :

– بل غريب جداً يا عزيزي
وران الصمت لحظة عليهما !

وأخيراً قال ليبلان :

– انها لمخاطرة جسيمة أن نتعرض لمستر اريستيد دون دليل نستند اليه ، ان له نفوذاً لا يمكن ان نتصور مداه ، ان له اصبعاً في جميع المنشآت والمؤسسات ، والدوائر الحكومية ، والبنوك ، والصناعات الرئيسية ، ومصانع السلاح ، وشركات النقل ، بإيالة واحدة تسقط الحكومات وتفلس البنوك والشركات .

واستطرد المفتش في شروده :

– انه يعيش في قصره في اسبانيا منزوياً متباعداً عن الناس .. ولكنه بملايينه يحرك الدولة ويسيطر عليها .
الوزراء جميعاً مجرد دمي مشاودين الى خيط بين أصابعه ، فإذا شد الخيط تحركوا .

واذا أرخاه سكنوا جميعاً ، وجمدوا مكانهم ..

انه القوة المحركة الخفية خلف الستار – فكيف يمكن أن نواجهه ونتحداه ؟

يجب ان يتوافر لدينا دليل .. اي دليل قبل أن نخطو خطوة واحدة .

فقال غيسوب :

- هون عليك يا صديقي .. إن الدليل ، لن يعوزنا في
النهاية .

فقال ليبلان في وجوم :

- لو فشلنا ، فسوف نطرد - أنت وأنا - من عملنا ، شر
طردة .

فرد غيسوب في سكون :

- كن مطمئناً يا صديقي .. اننا لن نطرد ، بل سوف نتصمر .

الفصل التاسع عشر

أخذت السيارة تهدر وهي تزحف على مهل ترتقي التل في طريقها إلى مستعمرة الجذام ، وأمام الباب الحديدي توقف الركب .

كانت أربع سيارات ، في الأولى منها أحد الوزراء ويحانبه سفير أميركا في باريس ، وفي الثانية قنصل النمسا في مراكش وأحد أعضاء البرلمان الفرنسي ومدير شرطة باريس . أما السيارة الثالثة فكانت تضم عضواً سابقاً في اللجنة الملكية ورئيساً سابقاً في المحكمة العليا مع اثنين من رجال الصحافة الذائعي الصيت ..

على حين كانت السيارة الرابعة تقل اثنين من أشهر رجال الخبايا ومعهما المفتشان ليبلان وجيسوب .

وأسرع السائقون يفتحون أبواب السيارات ، ونزلت منها هذه النخبة الممتازة من الزوار .

وغمغم الوزير بصوت خافت :

— أرجو ان تكون جميع الاحتياطات قد اتخذت ، تجنباً للعدوى !

فرد المفتش ليبلان :

— كن مطمئناً ، يا سيدي الوزير ، فقد اتخذت جميع الاحتياطات ،

كما أننا لن نقرب منهم ، بل سنراهم على البعد ، وهم خلف الأسلاك الشائكة .

وبدا الارتياح على وجه الوزير ، يقال السفير الأمريكي شيئاً عن طرق الوقاية الآمنة ، وكيفية الحيلولة دون تسرب العدوى باتباع الأساليب الطبية الحديثة .

وفتحت البوابة الضخمة على مصراعيها ، وفي المدخل كان نفر من موظفي المستعمرة في انتظار الضيوف للترحيب بهم ، وعلى رأسهم مدير المستعمرة ونائب المدير واثنان من الأطباء .

وبعد تبادل التحية قال الوزير :
- أرجو أن يكون عزيزي مسيو أريستيد قد بر بوعده فلم يعقه شيء عن الحضور .

فرد نائب المدير :
- لقد طار مستر أريستيد بالأمس آتياً من إسبانيا ، وهو ينتظركم في مكتبه يا سيدي الوزير ، فهل تفضلتم بمرافقتي ؟
وتقدم نائب المدير الركب والجميع في أعقابهم .

واستدار الوزير ببصره إلى اليمين ، ورأى المحذومين يغدون وراء القضبان المزودة بالأسلاك الشائكة ، وهم يحذقون في الضيوف كأنهم حيوانات حبيسة .

فسرى الاطمئنان إلى قلبه إذ كانت فكرته عن مرض الجذام هي نفس العقيدة المرعبة التي سادت القرون الوسطى .

وكان مستر أريستيد في انتظار ضيوفه في مكتبه الفخم ، الفاخر الرياش .

رحب بزائريه في حرارة ، وأبدى اغتباطه بزيارتهم لتفقد المستشفى ومعامل الأبحاث ، والاطلاع على أحدث الاكتشافات التي وصل إليها الباحثون

في ميدان العلاج .

ثم أمر بتقديم مختلف المشروبات إلى ضيوفه .

وقال أحد الصحفيين المرافقين للبعثة :

— الحق انه عمل رائع ، يا مستر اريستيد ، هذا الذي تقومون به هنا .

فأوما اريستيد برأسه وقال :

— يا سيدي ، إنني فخور بهذا المكان .. إنه هديتي إلى الإنسانية ، وما بخلت يوماً على الابحاث التي تجري هنا ، بأي قدر من المال .

وقال أحد أطباء المستشفى في حماس وانفعال :

— إن هذا المركز العلمي هو أقصى ما يطمح اليه العلماء ، فهو مزود بأحدث الاجهزة العلمية ، ومن حسن الحظ اننا استطعنا أن نتوصل إلى نتائج باهرة .

فقال اريستيد في نبرة المسيحي المؤمن :

— كان من توفيق الله علي ورضاه ان أحرزنا شيئاً من النجاح .

ومال عضو البرلمان على اذن رئيس المحكمة العليا السابق ، وقال هامساً :

— هذا المعجز المنافق يتظاهر بالتقوى والورع ، والله يعلم عدد البيوت التي خربها بمضارباته . إنه يستنزف دم الناس بأحدى يديه ويحسن باليد الاخرى .

فقال القاضي القديم منغمماً :

— إن أعظم الاكتشافات العلمية اكتشفت دون حاجة إلى مثل هذا البذخ والاسراف .

وقال مستر اريستيد وقد فرغوا من تناول المشروبات :

– إنه ليسعدني أيها السادة ان تتناولوا الطعام معنا ، وسينوب الدكتور فان هايديم عني في الترحيب بكم ، لانني أتبع نظاماً غذائياً يحول دوني ومشاطرتكم الطعام . وبعد ذلك يمكنكم ان تتفقدوا المركز العلمي أن تتطلعوا على ما تشاءون ، وان توجهوا الى الدكتور فان هايديم ما يطيب لكم من أسئلة .

وصحب الطبيب ضيوفه إلى قاعة الطعام . وكانت ألوان الطعام شهية وفاخرة ، وأبدى الوزير ثنائه وتقديره .

وقال الدكتور فان هايديم :
– إننا نولي الطعام عناية كبيرة حتى لا يشمر أحد من علمائنا أو مرضانا بأي نقص .

فالفاكهة والخضروات تصل اليينا بالطائرة مرتين في الاسبوع ، ولدينا ترتيب خاص بالنسبة للدواجن واللحوم ، كما ان لدينا ثلاث ضخمة تحتفظ فيها بالمؤونة .

وقدمت مع الطعام أنبذه معتقة من أفخر الانواع ، ثم قدمت القهوة التركية في النهاية . وبعد ذلك بدأت البعثة في تفقد المركز العلمي ، واستغرقت الزيارة أكثر من ساعتين .

وكان الدكتور فان هايديم بادي الاستعداد للاجابة على أي سؤال ، وشرح كل ما يستعلق على الضيوف .

كان الوزير أثناء الجولة في دهاليز المستشفى وقاعاتها يتقدم الموكب ويحاذيه المضيف فان هايديم ، يتبعهم الآخرون . على حين تعمد جيسوب وليبلان أن يتخلفا الى الراء وان يسيرا في نهاية الموكب .

وأخرج جيسوب من جيب صدريته ساعة ضخمة تطلع فيها ثم مز

رأسه صامتاً .

فقال له ليبلان :

- هل وجدت شيئاً ؟ ما من علامة على الإطلاق ؟

وهز جيسوب رأسه نفيّاً وأعاد الساعة إلى جيبه .

ومن حين لآخر كان جيسوب ينظر في ساعته ، وليبلان يطرح عليه

نفس السؤال :

- أما من علامة ؟

ويأتيه نفس الرد :

- لا شيء !. لا أثر يدل على وجودهم هنا .

- لا شك انهم نقلوهم إلى موضع بعيد من منزل ، حتى لا نلتقي بهم

أثناء الجولة .

فتساءل ليبلان :

- إذن فكيف نحصل على الدليل إننا دون دليل سنجد أنفسنا عاجزين

عن اتخاذ أي تدبير .. انك ترى انهم جميعاً مبهورون بما يشاهدون ، الوزير

والسفير الأمريكي والقنصل البريطاني .. إنهم جميعاً مؤمنون بأن اريستيد رجل

عظيم وفوق الشبهات .

فقال جيسوب باقتضاب :

- قبل ان نغادر المركز سيكون لدينا الدليل المنشود .

فهز ليبلان كتفيه وقال :

- إنك يا صديقي شخص شديد التفاؤل .

فرد جيسوب :

- هل تعلم مر الساعة التي أحملها ولا أفناً أتطلع اليها ؟ إنها أحدث

الاختراعات العلمية يا عزيزي ليبلان .. إنها ليست مجرد ساعة عادية ، وإنما

تضم في داخلها جهاز استقبال دقيق الحجم يتلقى إشارات لاسلكية من

جهاز آخر مداه مئة متر . ولا زلت أتوقع ان أثلقى هذه الذبذبة اللاسلكية من زميل موجود داخل المبنى ، إلا إذا كان يبعد عنا أكثر من مئة متر ، إذ يستحيل أن تمتد الذبذبة الى أكثر من هذه المسافة .

.. إذن فهذا هو الدليل الذي تترقبه ؟

.. تماماً .. ولم أفقد الأمل حتى الآن .

فقال ليبلان :

– ولكن الوزير لن يأخذ بهذا الدليل .. إنه يريد دليلاً قاطعاً ، لا مجرد ذبذبة في الهواء .. إنه يريد ان يرى أمامه شخصاً حياً يقول له انه كان محبوساً في هذا المركز وانهم احتجزوه هنا .

فرد جيسوب :

– سوف أقدم اليه هذا الشخص الحي .

ثم ما لبث ان أردف :

– ومع ذلك فلأنني لا أعتمد في إثبات نظريتي على الوزير أو السفير أو عضو البرلمان ، لأن لرجال السياسة حساسية خاصة يشعرون معها بالحرج لأي تصرف يبدر منهم .

فسأل ليبلان :

– وعلى من تعتمد إذن ؟

– على رجل عجوز محذورب الظهر ، ثقيل السمع ، ضعيف البصر .

فضحك ليبلان وقال :

– آه ! لعلك تقصد رئيس المحكمة العليا السابق ؟

– تماماً .. إنه رجل عرك الحياة وعركته ، ولطول عهده بالقضاء

أصبحت له أنف حساسة تشم بسهولة رائحة عفنة ، وإذا استراب في أمر فلن يقعه شيء عن متابعته وتعريته والكشف عنه ..

انه رجل علمه منصب القضاء ان ينصت ، وأن يتابع الانصات

حق يقع على الدليل .. هذا الرجل هو الذي سيؤازرنى في موقفى ضد
مستر أريستيد .

* * *

كانت جولة الضيوف قد انتهت بهم الآن مرة أخرى الى مكتب أريستيد
وقدمت اليهم المشروبات من جديد .
وهنا الوزير مستر أريستيد بالعمل العظيم الذي يؤديه للبلاد ، وانضم
السفير الأمريكى يزجى الثناء .

وكان غندئذ أن دار الوزير ببصره فيما حوله ، وقال بلهجة تنم
بالمصيبة :

- والآن ، أظن أيها السادة ، انه قد حان الوقت لكى نودع
مضيفنا العزيز .. فقد شاهدنا كل ما نريده ، ولم يعد لدينا شيء آخر
يستحق المشاهدة .

وضغط الوزير على كلمات الجملة الأخيرة كأنما يقول لجيسوب وليبلان : «ها
أنتم قد رأيتم أنكم كنتم واهمين ،
ثم استطرد :

- إن هذه المؤسسة من أعظم ما شهدت في حياتي ولا نظير لها في العالم .
والآن إسمح لنا يا سيدي العزيز ان نودعك وان نكرر الشكر .

وكانت هذه العبارات حاسمة قاطعة توحى بما يحول في ذهنه .. كأن
يريد ان يقول :

- لقد انهارت شكوككم أيها السادة .. ها نحن قد طلقنا بجميع أرجاء
المبنى ولم نشهد أئراً هؤلاء العلماء الذين زعمتم انهم مساجين خلف هذه

الجدران ، فهل طاروا في السماء ، أم انشقت الأرض وابتلعتهم ؟ إني الآن
مرتاح الضمير وأستطيع ان أبرح المكان مطمئناً .

وقبل ان يهم الوزير قائماً ارتفع صوت من أقصى يقول :
- اذا أذنتم يا سيدي الوزير ، فلاني أحب ان أسأل مضيفنا الكريم
منة صغيرة .

فقال الوزير :

- آه .. طبعاً !. لا مانع يا مستر .. جيسوب .

وقال الشرطي الانجليزي يخاطب مستر اريستيد :

- لقد التقينا أثناء جولتنا بالعديد من رجالك ومعاونيك . ولكني
أحب ان التقى بصديق قديم ، موجود هنا ، فهل يمكن أن تأمروا
بإستدعائه ؟.

فقال الدكتور فان هايديم باستغراب :

- الك صديق هنا يا سيد جيسوب ؟

فرد جيسوب :

- بل الواقع ان لي صديقين هنا .. سيدة تدعى مسز بيترتون .. اوليف
بيترتون وزوجها الذي كان يعمل في انجلترا في مركز هارويل العلمي ، وقبل
ذلك كان مقيماً في الولايات المتحدة .. فهل يمكن ، قبل ان أنصرف ، أن
أتحدث اليهما ؟

وكان رد الفعل عند الدكتور فان هايديم رائعاً يدعو للاعجاب ..

لم يلم وجهه عن أثر المفاجأة ، وإنما قطب جبينه في دهشة خالصة ،
وأخذ يرد :

- بيترتون .. مسز بيترتون . لا أعتقد أن لدينا هنا أحداً
بهذا الاسم .

واستطرد جيسوب :

- ويوجد هنا أيضاً شاب أميركي يدعى أندرو بيترز ، ومهنته باحث
كياوي فيما أعتقد .

والتفت الى السفير الأميركي قائلاً :

- اليس كذلك يا سيدي ؟

وترى السفير الأميركي برهة ، فهو دبلوماسي يزن موقع قدمه بدقة قبل
أن يتقدم خطوة واحدة ، ثم قال :

- تماماً . تماماً .. أندرو بيترز .. اني أحب ان أقابله .

وزادت دهشة فان هايديم ، وبدأت أصيلة لا زيف فيها وقال :

- أندرو بيترز أخشى يا سيدي السفير ، ان تكون المعلومات التي
لديكم غير دقيقة ، فليس لدينا احداً بهذا الاسم ، بل اني لم اسمع بهذا
الاسم من قبل .

فقال جيسوب باصرار :

- ولكنك سبق طبعاً ان سمعت باسم توماس بيترتون ؟ .

وتردد فان هايديم برهة ، والقي بنظرة خاطفة نحو مولاه المليونير ، ثم
قال نفسه وقال :

- توماس بيترتون ؟ آه .. اظن انه ..

وانبرى احد الصحفيين قائلاً :

- توماس بيترتون ؟ لقد كان حديث الصحف منذ ستة شهور عندما
اختفى فجأة ، نعم ، كان في باريس لحضور احد المؤتمرات فإذا به يتخاف
عن الجلسات ويختفي ، وقد بحث عنه البوليس في كل مكان دون ان يبتدى
الى اي اثر له .. هل تريد يا سيد جيسوب ان تقول انه كان موجوداً هنا
طوال الوقت ؟

وزايل فان هايديم هدوءه ، ومضى يتكلم في عصبية وانفعال ، فقال :

- أخشى يا سيدي ان يكون بعضهم قد زودك بمعلومات غير صحيحة

تلك دون شك اشاعة كاذبة .. انك رأيت جميع من يعملون لدينا . انك رأيت كل شيء هنا .

فقال جيسوب باصرار ولكن بهدوء :

– كلا . إننا لم نر كل شيء ، ولم نر كل من يعملون هنا .

واستطرد :

– هنا مثلا شخص يدعى ايريكسون .. وهنا أيضا الدكتور لويس بارون ومن المحتمل ان تكون مسز كالفن بيكر هنا أيضا .

وبدا على الدكتور فان هايديم انه ذكر فجأة شيئا كان غائبا عنه فقد قال :

– آه ا . ولكن هؤلاء القوم قتلوا جميعا في مراکش في حادث سقوط طائرتهم .. إني أذكر الآن انني قرأت هذا النبا في الصحف منذ أسبوعين إني ، على الأقل ، متأكد من اسمين منها : ايريكسون والدكتور بارون ..

واستطرد :

– لقد منيت فرنسا بخسارة جسيمة فإن الدكتور بارون من كبار العلماء الذين لا يعوضون .. أما مسز كالفن بيكر فلا أعرف شيئا عنها، وإن كنت أذكر انه كانت بين ركاب الطائرة سيدة إنجليزية أو أميركية ، لا أدري ، وربما كانت هذه السيدة هي مسز بيترتون إذا لم تخدعني ذاكرتي .

فقال جيسوب :

– إذا فأنت مصر على اني مخطيء وهؤلاء القوم غير موجودين هنا ؟

فقال الدكتور فان هايديم :

– وكيف يكونون هنا وقد قتلوا جميعا في حادث الطائرة ؟ . اني أتذكر أن البوليس عثر على جثثهم بين الحطام .

فقال جيسوب في كلمات بطيئة متمهلة ليكسبها مغزى خاصاً .
- ولكن الجثث جميعاً كانت متضخمة بحيث استحال التعرف عليهما ،
ومعرفة شخصيات أصحابها .

ومن أحد أركان القاعة ارتفع صوت أجش يتكلم ، وإن كان صوتاً
صارماً واضح النبرات .
قال الصوت :

- هل أفهم من قولك هذا أنه لم يمكن التعرف على أصحاب الجثث التي
وجدت بين الحطام ؟

وكان المتكلم هو ذلك المعجوز اللورد الفيرستوك ، الرئيس السابق
للمحكمة العليا .

فقال جيسوب بحبيماً :

- تماماً يا سيدي اللورد . كانت الجثث متضخمة اختفت معالمها ،
فافترض البوليس أنها جثث ركاب الطائرة المدونة أسماؤهم في السجل . لكن
لدي من الأبواب ما يدفعني إلى الاعتقاد بأن ركاب الطائرة نجوا من الفاجعة
وما زالوا أحياء . هذا هو اعتقادي .

فقال الرئيس السابق للمحكمة العليا في نبرة من الامتناع :

- اعتقادك ؟ . إن ما يعتقده الإنسان ليس دليلاً .

فقال جيسوب :

- بل الدليل حاضر يا سيدي اللورد .

- إذاً ما هو الدليل يا مستر جيسوب ؟

فرد جيسوب :

- في اليوم الذي غادرت فيه مسز بيترتون فزان إلى مراکش كانت
تزين بعقد من اللآلئ المقلدة ، وقد عثرنا على حبة من هذا العقد على مسافة نصف
ميل من حطام الطائرة .

فعماد القاضي القديم يتساءل في لهجة المحقق القدير
 - وانى لك أن تتأكد أن الحبة التي عثرتم عليها هي من نفس العقد الذي
 كانت مسز بيترتون تتجلى به ؟

- لأن بجميع حبات العقد علامة سرية لا ترى بالعين المجردة ، وإنما
 تظهر تحت العدسة المكبرة ، وكانت الحبة التي عثرنا عليها مرسومة بنفس
 العلامة .

- ومن الذي وضع هذه العلامات على حبات العقد ؟
 - أنا بنفسي يا سيدي اللورد .

واستطرد اللورد في استجوابه سائلاً :
 - وما الذي دفعك إلى اتخاذ هذا الاجراء ووضع هذه العلامات ؟ اكان
 لديك سبب لهذا ؟

- نعم يا سيدي اللورد .. كان لدي ما يحماني على الاعتقاد بأن مسز
 بيترتون ستقودني إلى زوجها الذي كان قد صدر الأمر بالقبض عليه لإفشائه
 معلومات تمس أمن الدولة .
 واستطرد غيسوب :

... ولم تكن اللؤلؤة المعلقة التي عثرنا عليها بالقرب من حطام الطائرة
 الوحيدة ، بل عثرنا على لؤلؤتين أخريين على طول الطريق بين الموضع الذي
 احترقت فيه الطائرة ، وبين المكان الذي نحن فيه الآن وقد أسفرت التحريات
 التي قمنا بها في الجهات التي عثرنا فيها على حبات اللؤلؤة عن مرور أشخاص
 بهذه المناطق وأوصافهم العامة مع أوصاف ركاب الطائرة المحترقة .
 وتابع حديثه قائلاً :

- وليس هذا فقط ، بل انني كنت زودت أحد ركاب الطائرة بقفاز
 على كفه بالفوسفور ، وطلبت إلى هذا الشخص أن يخرج يده المكسوة بالقفاز
 من نافذة السيارة أثناء الليل عند مروره بالقرى ، فيضيء الفوسفور في

الظلام ، فتتناقل الناس أن يد « الشيخة فاطمة » ظهرت في هذه القرى ،
وتبلغنا الاشاعة طبعاً ، وبذلك يسهل علينا اقتفاء أثر هذه الجماعة .
فقال القاضي القديم متسائلاً :

— الشيخة فاطمة ! ومن تكون الشيخة فاطمة هذه ؟

فأجاب :

— الشيخة فاطمة في نظر السذج من أهل هذه البلاد امرأة مبروكه ، وهم
يعتقدون أنه إذا ظهرت يدها التي تشع نوراً لأحد الناس حلت عليه البركة
والخير ، فرأيت أن استغل هذه الخرافة لتسهل مهمة المطاردة والمراقبة على
رجالي ..

وفعلاً ظهرت يد الشيخة فاطمة من نافذة سيارة كانت في طريقها إلى
هذا المركز العلمي .

فهمز اللورد الفيرستوك رأسه الجملة بالشيب ، وتألقت عيناه تحت حاجبيه
الكثيفتين وقال :

— رائع .. رائع . تدبيرات تدل على الدهاء .
وتأمل مستر أريستيد في مقعده الكبير ، ودمش بطرفه مرة أو مرتين
أثناء هذه الرواية : رغم ما يتسم به من ثبات الأعصاب .

واعتمد القاضي في مقعده ونصب قامته .

ثم أطلق سؤاله الحاسم :

— رآين اهتديتم إلى الآثار الأخيرة لهذه الجماعة من الناس ؟

في مطار حربي مهجور من مخلفات الحرب الماضية .

وبسط غيسوب وصفاً دقيقاً لمرقم المطار .

وقال مستر أريستيد معقلاً :

— هذا المطار يقع على مئات الأميال من هذا المركز العلمي ، فإذا نحن

افتراضنا جديلاً أن حادث احتراق الطائرة كان مصطنعاً ، وإن ركاب الطائرة

نقلوا بعد هذا إلى المطار المهجور ، فمن أين لك أن تعرف انه جىء بهم بعد هذا الى مستعمرة الجذام ؟
فأجاب جيسوب :

– إن لدي أسباباً قوية تؤيد هذه النظرية ، لقد بعثنا بأحدى الطائرات تسمح المنطقة المشكوك في امرها ، وقد طارت أثناء بحثها فوق هذا المبنى على ارتفاع منخفض جداً ، وأثناء طيرانها تلقى الطيار إشارة لاسلكية خاصة كان متفقاً عليها مع شخص من ركاب الطائرة كنا قد زودناه بجهاز إرسال لاسلكي يرسل ذبذبة معينة ، وبذلك نهتدي إلى مكان حامل الجهاز .. وفهمنا من هذه الإشارة اللاسلكية إن الجماعة التي نبحث عنها موجودة في مستعمرة الجذام .

وقال مستر اريستيد محكماً :

– يا مشتر جيسوب ، ولكنني ما زلت أعتقد ان هناك مؤامرة مدبره لتضليلك وإيقاعك في الخطأ ، فإن هذه الجماعة التي تحدثت عنها غير موجودة في مستعمرة الجذام .
ثم استطرد :

– ومع ذلك فإن لك مطلق الحرية في أن تفتش هذا المبنى إن شئت .

فأجاب جيسوب :

– وما الفائدة يا سيدي ؟ إن تفتيش هذا المبنى لن يسفر عن شيء على الإطلاق ، ثم إننا رأينا منه حين تجولنا ما فيه الكفاية ، فلا داعي للقيام بجولة أخرى ؟
فقال اريستيد :

– انك تناقض نفسك يا سيدي . كيف تؤكد ان الجماعة موجودة هنا وفي الوقت ذاته تقول ان تفتيش المنزل لن يسفر عن العثور عليهم .
– هذا لأنني أعرف انهم موجودون في مكان سري خفي .

- وأين هذا المكان السري الخفي ؟ هل تستطيع أن تحددده ؟

فابتسم جيسوب وقال :

- انه في الدهلز الرابع المتصل بالمعمل الثالث ، في أقصى النقطة التي تنحرف يساراً .

وتلعل الدكتور فان هايديم في مقعده بحركة مفاجئة ، وثبت نظارته على عينييه ، فأفلتت من بين أصابعه المرتعشة ، ووقعت فوق السجاد ، فأنحنى يلتقطها .

وتطالع اليه جيسوب باسماء وقال :

- ها أنت ترى يا دكتور ان معلوماتنا مؤكدة وصحيحة .

وقال الدكتور فان هايديم في انفعال :

- هذه إهانة ! امانة شديدة ! اتريد ان تزعم اننا نسجن هنا بعض الناس رغماً عن ارادتهم ؟ انني انكر كل هذا انكاراً قاطعاً .

- اتدري كيف عرفت ان العلماء في هذا المكان السري من المبني ؟ ان رجلاً من اعوانى خدعكم وانضم اليكم على انه واحد من العلماء ، ومع مساعدتي هذا جهاز لاسلكي يرسل ذبذبة معينة ، وعند مروري بالدهلز الرابع تلقى الجهاز الذى احمله داخل ساعتى هذه الذبذبة الصادرة من الجهاز الآخر .

وقال الوزير في صوت يخالجه التردد :

- لقد انتهينا الى موقف دقيق . فهذا يؤكد وذاك ينكر بنفس القوة والحماس .

وتكلم المليونير .. قال بسكينة :

- ان ما سمعناه قصة طريفة مسلية ، ولكن كل ما جاء بها مجرد افتراضات وتكهنات ، لا تعدو ان تكون شبيهة للروايات البوليسية ، ولهذا اسمعوا لي ايها السادة ان اقول ان الوقت قد حان لكي تنصرفوا ، فلان لدى مشاغل جهة تدعوني الى الرجوع الى اسبانيا فوراً ، كما ان موعد

رحلتكم قد فات منذ وقت غير قصير ، فإذا تأخرتم أكثر من ذلك اثرتم القلق في البلاد اذ ستبادر الى الازمان ان طائرتكم تهشمتم في رحلتها . وتبادل جيسوب وليبلان النظرات ، فقد ادركا ان الموقف اصبح حاسماً وأنه وصل الى نقطة المواجهة الصريحة القاطمة .

ان مستر أريستيد يستنجد الآن بكل نفوذه ومكانته للقضاء على الشكوك التي ثارت ، فهو يتحدى هؤلاء القوم بكل ما لديه من شجاعة ، محاولاً أن يفرض عليهم إرادته .

والوزير في حرج من أمره ، لا يدري كيف يتصرف ، إذ لا شك ان رئيس الحكومة طلب أن يكون مرناً وعلى حذر ..

ومدير الشرطة حريص على أن يرضي الوزير وأن يمالئه ويحاريه .. والسفير الأميركي قد يكون مقتنعاً إلى حد كبير ، ولكنه بحكم منصبه حريص أن يكون لبقاً حتى لا يتورط في أزمة سياسية ..

أما القنصل البريطاني فمنصبه أتعفه من أن يتحدى الآخرين . وتطلع جيسوب إلى الصحفيين ، واحداً بعد الآخر ، إن أمله معلق بها ، ولكنه ما كان ليجهل ان مستر أريستيد يستطيع أن يشتريها وقد يكون الثمن باهظاً ، ولكنه على أية حال يستطيع أن يطويها .

وأخيراً استقر نظر جيسوب على الرجل المعجوز ، هذا القاضي القديم .. الرئيس السابق للمحكمة العليا .

كان منكشاً في مقعده ، ومن تحت حاجبيه الكثيفين النافري الشعر ، كأنها شجرة صغيرة كانت عيناه تهرقان .

تأمل جيسوب برهة ..

ثم قال في نفسه :

- نعم .. هذا الرجل الذي لا يستطيع أحد أن يشتريه !

وأفئاق جيسوب من خواطره على صوت صارم النبرات ، هودوت

القاضي القديم !

كان الصوت الصارم يقول :

-- انني أرى أن نثريث قليلاً بأن لا نبادر بالرحيل .. إن أمامنا الآن قضية بحاجة إلى المزيد من التحقيق لاستجلاء غوامضها .. هناك اتهامات خطيرة وجهت وما كان ينبغي أن توجه ، كما أنه لا ينبغي أن نسقطها من حسابنا دون تقدير .. وانصافاً للمدالة وإحفاقاً للحق يجب أن نتيح كل فرصة لتنفيذ هذه الاتهامات أو إقامة الدليل عليها .

فلوح مستر اريستيد وقال مشيراً إلى جيسوب :

إن البينة على من ادعى ، فعليك أن تقيم الدليل على ما تقول ، إنك نثرت الاتهامات يميناً وشمالاً دون دعمها بالبراهين .

-- كلا أيها السادة ، فالبراهين حاضرة وموجودة

لم يكن جيسوب هو الذي نطق بهذه العبارة ، ولم يكن ليبلات هو الذي تفوه بها

كان الصوت صادراً من أقصى ركن في القاعة

كان الصوت صادراً من خادم مراكشي من البربر له وجه شديد السمرة

يكاد لونه يضرب إلى السواد

واستدار الدكتور فان هايديم في حركة عنيفة يتطلع في دمشة إلى

الخادم المراكشي .

واستقرت عليه أيضاً أنظار الجماعة كلها مشدوهين .

واستطرد الصوت يقول بهدوء :

-- نعم .. ان الدليل حاضر ايها السادة .. ان لكم أن تأخذوا بشهادتي

في التو واللحظة . لقد أنكر هؤلاء السادة وجود افراد هذه الجماعة هنا :

اندروبييترز ، وتوركيل ايريكون ، ومستر ومسر بترتون والدكتور

لبس بارون ولكنه انكار كاذب ، فجميع هؤلاء .. جميعهم موجودون

هنا ، وأنا أتكلم باسمهم بالنيابة عنهم .
وتقدم الخادم المراكشي خطوة إلى الأمام ، ووقف أمام السفير الأميركي وقال مخاطبه :
- قد يكون من الصعب عليك معرفتي ، يا سيدي السفير ، وأنا على هذه الهيئة ؟
فتأمل السفير الأميركي برهة وعلامات الحيرة تبدو على وجهه .
واستطرد المراكشي ذو الوجه الأسود :
- سيدي السفير انني أندرو بيترز !
وبدرت شهقة خافتة غير ملحوظة من بين شفتي مستر أريستيد ، لكنه ما لبث ان استعاد ثباته ورباطة جأشه .
واستطرد اندرو بيترز :
- وهؤلاء ليسوا هم الوحيدين الموجودين هنا ، فهناك غيرهم كثيرون :
شوارتز من ميونيخ ، وهيلدا نيدهايم ، وكذلك جيفري ودافيدسون العالمان الانجليزيان الشهيران ، وهنا أيضاً بول ويد من الولايات المتحدة ، وكذلك الابطالان روكو شيتو وبيانكو ، وأيضاً ماشيسون .. وكثير غيرهم .. كل هؤلاء هنا .. في هذا المبنى .
وقابع الحديث قائلاً :
- في هذا المبنى أهما السادة جناح سري يسمى قاعة الطوارئ ، لها باب سري في جدار أحد الدهاليز لا يمكن لعين ان تتبينه لأنه لا يتراءى إلا جزءاً من الحائط .
وهتف السير الأميركي :
- يا إلهي ! هذا صحيح .. إنك فعلاً اندرو بيترز ، لكن ما هاتان الشفتان النليظتان .
فابتسم الخادم المراكشي قائلاً

- حقنة واحدة من البارافين في الشفتين تكسبهما هذه الفلاظة ، أما لوني
فمرجعه صبغة دهنت بها وجهي .
- وحين قال لكم مستر جيسوب ان له مندوباً اندس بين العلماء فإنما كان
يعني في بهذا القول فأنا الذي أرسلت الإشارة اللاسلكية بشفرة الموريس إلى
الطيار الذي كان يحوم فوق المستعمرة الذي يحمله مستر جيسوب كانت صادرة
مني .. من هذا الجهاز .
- وأخرج من جيبه علبة سبائره الكبيرة الحجم ، والمصنوعة من غلاف
إحدى القنابل ، وقال :
- إن جهاز الارسال الذي معي مخبأ داخل هذه العلبة .
- فقال السفير :
- إذا كنت حقاً أندرو بيترز فما هو رقمك السري في التقارير ؟
- فرد على الفور :
- ٨١٣٤٧١ يا سيدي .
- تماماً .. وما هي رموز اسمك الحركي السري ؟
- ب. أ. ب. ج. يا سيدي .
- تماماً .. هذا الرجل هو أندرو بيترز دون شك .
- فتنحنح الوزير وعلا صوته ثم قال في شيء من التردد :
- هل تزعم ان هؤلاء القوم ، مسجونون هنا كرها عنهم ، وعن غير
إرادتهم ؟
- بعضهم فقط أما البعض الآخر فرغماً عنهم يا سيدي الوزير .
- فقال الوزير :
- في هذه الحالة يجب اتخاذ الاجراءات الكافية بالتحقق من هذا الادعاء .
- ونظر الى مدير الشرطة ، فتقدم هذا خطوة الى الأمام .
- فلوح مستر اريستيد بيده قائلاً :

- لحظة أيها السادة . يبدو لي مما سمعت ان القائمين على إدارة هذا المركز العلمي قد خانوا الثقة التي وضعنها فيهم ، هذا إذا صحت مزاعم السيد جيسوب .

ونقل نظراته الباردة الصارمة من الدكتور هايديم إلى مدير المركز ، وكان منطوياً في نظراته أمر صادر اليهما بأن يلتزما الصمت . ركان على يقين من ان أمره مطاع ، فبأمواله يشتري سكوتهما ، وينفذه يخرجهما من ورطتهما . واستطرد .

- إن ما أقدمت عليه أيها السيدان أمر خطير لا يبرره حماسكما للعلم .. فقد أنشأت هذا المركز خدمة للإنسانية وتدعياً للبحث العلمي الخالص ، وبعد ذلك نفضت يدي من إدارته الفعلية . فإذا صح يا عزيزي المدير ان في هذا المركز قوماً محجوزون على غير إرادتهم فلاني أشير بأن تبادر على الفور باطلاق سراحهم .

فقال مدير المركز :

-- لكن يا سيدي . إنني ..

فقاطعه مستر اويستيد :

- نعم ، يجب ان تنتهي هذه التجربة على الفور .

ثم استدار إلى ضيوفه قائلاً :

-- لا أحسب أيها السادة انني في حاجة لأن أؤكد لكم انه لا شأن لي مطلقاً بما يحصل هنا . فقد خان القائلون على هذا المركز ثققي ، وحق عليهم العقاب .

وكانت كلماته أمراً قاطعاً لا رجعة فيه ؛ أولاً بسبب ثروته ، وثانياً بسبب نفوذه ومكانته .. إن أحداً لن يجرؤ على ان يتعرض له بسوء وحق أعوانه لن يستهدفوا للعقاب ، لأن نفوذه كفيل بانقاذهم .

إن مستر اريستيد المليونير المعروف ، والمحسن الكبير ، والرجل المرموق

في عالم المال والذي يسيطر على البنوك والمؤسسات التجارية والصناعية ، لا يجب ان يتورط اسمه في هذه المشاكل او أن يمسه أحد بكلمة .
وكان مستر اريستيد على يقين لا تخالجه ذروة من الشك في أن هذه
الفضيحة ستطوى في طي الكتمان .
واستطرد :

— نعم ، أيها السادة .. إنكم تعلمون جميعاً انه لا علاقة لي إطلاقاً بما
حدث هنا . كل مهمني هي تقديم المال للبحث العلمي خدمة للانسانية ..
والآن أرجو ان تسمحوا لي بالانسحاب فقد حان موعد سفري .

ونفضوا وقوفاً ، وانحنوا جميعاً تعجلاً واحتراماً ، وكان الوزير والسفير وعضو
البرلمان هم أكثر الناس انحناءاً .

— تمت —

